بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إنَّ الحمد لله ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعينه ، مَنْ يَهْدِه اللهُ فلا مُضلَّ له ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شريك له ، وأنَّ مُحمَّدًا عَبْدُهُ ورسُولُهُ .

أمَّا بعدُ [١] :

فهذه رسالةٌ بعنوان « فنّ الحوار » أُقدِّمها للقارئ الكريم ، وأُحِبُّ أنْ أُنَبِّهَ إلى أنَّ خُلاصة هذه الرِّسالة كانت خاطرةً ألقيتُها على بعض الشباب الطَّيِّبين الذين أُحبُّهم .

أُولَئِكَ أَصْحابي فَحيَّ هلا بِهِمْ ... وَحَيَّ هلا بالطَّيِّبين وأنعُمُ

ويا لائمي في حُبِّهِمْ وولائِهِمْ ... تَأَمَّلْ - هداكَ اللهُ - مَنْ هُمُ أَلْوَمُ

واستجابةً لرغبة بعض إخواني أُقدِّمها اليوم مطبوعةً بعد تعديلاتٍ وإضافاتٍ، اقتضاها تحويلها من الخطاب المسموع إلى الكتاب المقروء ، مع قناعتي بأنَّها غير وافية ، لكنِّي مُتأكِّدٌ بأنِّي لو تركتها إلى أن ترضى عنها نفسي كُلَّ الرِّضَى ، لضاعَتْ بين التَّسويف والتَّشاغل ؛ فاخْتَرتُ نشرها بدلاً من الانتظار لغيبٍ لا ندري ما الله صانعٌ فيه ، ولاسيَّما أنَّ الحاجةَ داعيةٌ إلى طرقِ هذا الموضوع المهمِّ ، والتَّأكيد عليه في أوساطِ طَلَبَةِ العلمِ والدُّعاة الَّذين عناهم ابن عبد البرِّ النَّمَريُّ - رحمه الله - في الثناء على أهلِ الجهادِ بالحُجَّةِ ، الذي اعتبرهُ ابن القيِّم أكبر الجِهادين [٢] .

---

(١) مختصر صحيح مسلم رقم (٩٠٤) ، وهذه الكلمات كانتْ سببًا في إسلام الصَّحابي الجليل ضماد الأَزْديِّ رضي الله عنه ، لمَّا سمعها من رسول الله ﷺ .

(٢) انظر كلامًا متينًا لابن القيِّم في كتابه « مفتاح دار السَّعادة » (١/ ٧٠) .

أَهْلاً وسهلاً بالذين أُحبُّهُم ... وأَوَدُّهُم في الله ذي الآلاءِ
أَهْلاً بقومٍ صالحينَ ذَوي تُقَى ... غُرٍّ [١] الوُجُوهِ ، وزَيْنِ كُلِّ ملاءِ
يَسْعَوْنَ في طَلَبِ الحديث بعفَّة ... وتوقُّرٍ ، وسكينَة ، وحَيَاءِ
لَهُمُ المَهَابَةُ ، والجَلالَةُ ، والنُّهَى [٢] ... وفَضَائل جَلَّتْ عَنِ الإحْصَاءِ
ومِدَادُ ما تَجْري بِهِ أَقْلامُهُم ... أَزْكَى وأَفْضَلُ مِنْ دَمِ الشُّهَدَاءِ
يا طَالِبي عِلْمِ النَّبيِّ محمَّدٍ ... مَا أَنْتمُ وَسِوَاكمُ بسَوَاءِ [٣]

ولا شكَّ أنَّ العلمَ بموضوع الحوار ، والإحاطة بتفاصيله ، والتَّسلُّح بالحُجَج والبراهين ، سلاح ماضٍ بيد المُحاور الناجح ؛ إذ يُمكِّنه من الوقوف على أرضٍ ثابتةٍ ، وليس على رمالٍ مُتحرِّكة ، فالمستيقن من الحقِّ الذي معه تراه مطمئنَّ الخاطر ، آمنًا على مذهبه من صولة الباطل ، فينطق عن أَنَاةٍ ، وتخيُّرٍ للأقوال الصائبة ، والعرب تقول : « قَبْلَ الرَّمْيِ يُرَاشُ السَّهْمُ » ، أي : هَيِّئ الأمرَ وأعِدَّه قَبلَ حاجتَكَ إليه [٤] .

أمَّا مَنْ لم يكنْ عَلَى بصيرةٍ من رأيه ، فإنَّه ينزعجُ عند الحوار ، ويطيشُ به الجدل حتَّى يقذف بالسِّباب ، ويلفظ بالكلام الذي لا قيد له ولا زِمام من قبل أنْ يُقيمَ له وزنًا ، والعرب تقول : « عِنْدَ النِّطاحِ يغلبُ الكبشُ الأجم » ؛ لأنَّه فعل ذلك من غير عُدَّةٍ هيَّأها [٥] .

فالحوار وسيلةٌ مهمَّة من وسائل الدَّعوة إلى الله ، وبقدر ما يكون الدَّاعية مُتمكِّنًا من فنِّ الحوار ، مُحيطًا بجوانبه ، بقدر ما يكون أقدر على النَّجاح .

---

(١) غُرٌّ : بِيض ، مفرده أغرُّ .
(٢) النُّهى : العقول الفاهمة، مفردها نُهْيَةٌ، سُمِّي العقل بذلك؛ لأنَّه ينهى صاحبَهُ عن مُقارفة كُلِّ قبيح.
(٣) « جامع بيان العلم » (١/ ٣١) .
(٤) « الأمثال » (ص٢١٥) .
(٥) المرجع السابق (ص٢١٥)

وإنِّي لَمُعْتَـرفٌ بالتَّقصير في تناوله سَلَفًا ، فـعلَى مَنْ رَأَى خطأً أو نقصًا أن يُرشدني إلى الصَّوابِ مشكورًا ، فالمؤمنون نَصَـحَة ، والمؤمن مرآة أخيه المؤمن ، وقـديمًا قـال إبراهيم الصّوليّ : « المتـصفِّحُ للكتـاب أَبْصَرُ بمواقع الخَلَلِ فـيه من مُنْشئه » (١) ، ورحمَ اللهُ العماد الأصفـهانيَّ القائل : « إنِّي رأيتُ أنَّهُ لا يكتب إنسانٌ كتَابًا في يومه إلاَّ قال في غَـدِه : لو غيَّرَ هذا لكان أحسن ، ولو زيدَ كذا لكان يُسْتَحْسَنُ ، ولو قُـدِّمَ هذا لكان أفضل ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العِبَرِ ، وهو دليلٌ على استيلاءِ النَّقْصِ عَلَى جُملَة البشرِ » .

ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله ، عليه توكَّلتُ ، وإلَيْه أُنيب .

والحمد لله ربِّ العالمين

فيصل بن عجيره قائد الحاشري

(١) « الأعلام » (١/ ٤)

تمهيد

- تعريفُ الحِوارِ .
- عنايةُ القرآنِ بِالحِوَارِ .
- عنايةُ السُّنَّةِ بالحِوَارِ .
- عنايةُ السَّلَفِ بالحِوَارِ .

تعريف الحوار

الحوار :

أصله من الحَوْر (بفتح الحاء وسكون الواو) : وهو الرُّجوع عن الشَّيء ، وإلى الشَّيء .

قال لَبيدُ بن ربيعة :

وما المرءُ إلاَّ كالشِّهَابِ وضَوْئِهِ يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

يُقال : حَارَ ، يَحُورُ ، حَوْرًا وحؤورًا : رَجَعَ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانشقاق : ١٤] ، أي يرجع إلى ربِّه ، وقوله ﷺ : « ومَنْ دعَا رجُلاً بالكُفر ، أو قال : عَدُوَّ الله ، وليسَ كذلك إلاَّ حارَ عليه » (١) ، قال النَّوويُّ - رحمه الله - : « حَارَ عليه - وهو معنى رَجَعَتْ عليه- : أي رَجَعَ الكفر عليه ، فبَاءَ وحَارَ ورَجَعَ بمعنًى واحدٍ » (٢) .

والمحار : المرْجِع .

قال الشاعر :

نَحْنُ بَنُو عَامِرِ بْنِ ذبيان والنَّاسُ حَمام مَحَارُهُم للقُبُورِ

والمحاورة : المجاوبة . والتَّحاور : التَّجاوب ، يُقال : تحاوروا : تراجعوا الكلام بينهم ، وأحَارَ عليه جوابَهُ : رَدَّهُ ، واستحاره : استنطقه .

فالحوار إذًا في اللغة : هو الرُّجوع والمجاوبة .

وفي الاصطلاح : هو مُراجعة الكلام وتداوله بين طرفين والأخذ والرَّدُّ فيه (٣) .

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٦١) عن أبي ذر رضي الله عنه .
(٢) شرح النَّوويِّ (٢/ ٥٠) .
(٣) الحوار (ص ٢٠) .

ومِنْهم مَنْ عَرَّفَه **بأنَّه** : نوعٌ من الحديث بين شخصين أو فريقين ، ويتمُّ فيه تداول الكلام بينهما **بطريقة** مُتكافئَة ، فلا يستأثر أحدهما دون الآخر ويغلب عليه الهدوء ، والبُعد عن الخصومة والتَّعصُّب (١) .

وقد ورد لفظ الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع فقط :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) ﴾ { الكهف : ٣٤ } .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) ﴾ { الكهف : ٣٧ } .

والثَّالث : قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) ﴾ .

{ المجادلة : ١ } .

ومن المصطلحات القريبة من معنى الحوار :

[١] **المجادلة** :

أصلها من الجدل ، ومادَّة جدل في اللُّغة تدلُّ على الشدَّة والقُوَّة .

قال ابن منظور : « الجدل : هو شدَّة الفتل ، وجدلتُ الحبل أجدله جدلاً إذا شددت فتله ، وفتلته فتلاً مُحكمًا ، ومنه قيل لزِمام النَّاقة : الجَديل » (٢) .

وقال **الجوهريُّ** : « **التَّجديل** : هو الزِّمام المجدول من آدم ، **ومنه قول امرئ القيس** :

---

(١) « أصول الحوار » (ص٦) .

(٢) « لسان العرب » (١١/ ١٠٣) .

وَكَشْحٍ[١] لطيفٍ كالتَّجـديلِ مُخَصَّرٍ[٢] وَسَاقٍ كأنْبوبِ[٣] السَّعْيِّ المُذلَّلِ[٤]

وغلام جادل : مُشتدٌ ، وجدل الحَبُّ في سُنْبُلِه : قوي .

قال الأصمعيُّ : الجـادل من ولد النَّاقة : الراشح ، وهو الذي قوي ومَشَى مع أمِّه » [٥] .

وقال ابن مـنظور: « الأجدل : الصَّـقر، صنعـة غالبة، وأصلـه من الجدل الذي هو الشِّدَّة » [٦] .

وقال - أيضًا - : « والجَـدَلُ : اللَّددُ في الخصومة والقُـدرَة عليها ، ورجل جدل، إذا كان أقوى في الخصام ، والجَدَلُ : مُقابلة الحُجَّة بالحُجَّة ، والمُجادلة : المناظرة والمخاصمة » [٧] .

والجدل في الاصطلاح : هو دَفْعُ المَرْءِ خَصْمَهُ عن إفساد قوله بحجَّةٍ أو شبهةٍ، أو يقصد به تصحيح كلامه ، وهو الخصومة في الحقيقة [٨] .

قال النَّوويُّ - رحـمه الله - : « الجدل والجـدال والمجادلة : مُقابلة الحـجَّة بالحجَّة، وتكون بـحقٍّ وباطلٍ ، وأصله : الخصومة الشـديدة ، ويُسمَّى جدلاً ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُحكِم خصومته وحُجَّتـه إحكامًا بليغًا على قَدْر طاقته تشبُّهًا بجدل الحبل ، وهو إحكام فتله » [٩] .

---

(١) **الكَشْحُ** : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف .

(٢) **المُخَصر** : الدَّقيق الخصر .

(٣) **الأنبوب** : ما بين العقدتين من القصب وغيره .

(٤) **السَّعيُّ المُذلَّل** : يعني البردي المَسْقيَّ الملين بالإرواء يُريدُ تشبيه كَشْحِ مَحبوبته بزمـام النَّاقة المُتَّخَذِ من الجلد ، وساقها بنباتة البردي المسقيَّة كثيراً .

(٥) « الصحاح » (٤/ ١٦٥٣) .

(٦) « لسان العرب » (١١/ ١٠٤) .

(٧) المرجع السَّابق (١١/ ١٠٥) .

(٨) « التَّعريفات » (ص٧٨) .

(٩) « تهذيب الأسماء واللغات » (٣/ ٤٨) .

ويكون الغرض منه إلزام الخصم ، والتَّغلُّبِ عليه في مقام الاستدلال [١] .

ولفظ الجدل ورد في القرآن الكريم في تسعةٍ وعشرين موضعًا ، كلها في سياق الذمِّ إلا في ثلاثة مواضع :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النَّحل : ١٢٥] .

والثَّاني : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . [العنكبوت : ٤٦] .

والثالث : قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ [المجادلة : ١] [٢] .

وقد أُطلق الجدال في هذه الآية على الحوار ، وهو مراجعة الكلام بينَ النبيِّ ﷺ وخَولة بنت ثعلبة رضي الله عنها .

أمَّا في السنَّة : فالأحاديث التي ورد فيها لفظ الجدل على إطلاقه ، فتدل على كراهيته ، فمن ذلك حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ضلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كانوا عليه ، إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ » ، ثُمَّ تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) ﴾ [الزخرف : ٥٨] [٣] .

فالجدل - **إذًا** - لم يُؤْمَرْ به ، ولم يُمدَحْ في الكتاب أو السُّنَّة على إطلاقه، بل الأصل **فيه أنَّه** مذموم ، **ما لم يُقَيَّدْ** بالحُسْنَى أو بالحقِّ : كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥]، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا

---

(١) « تاريخ الجدل » (ص٥) .

(٢) انظر : « استخراج الجدال من القرآن الكريم » (ص٥١ ، ٥٢) .

(٣) رواه الترمذيُّ في التَّفسير (٣٢٥٣) ، وابن ماجة في السُّنَّة (٤٨) ، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢/ ٥٦٣٣).

أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

ومن ذلك تبيَّن الفرق بين الحوار والجدل ، إذ أنَّهما يلتقيان في كونهما حديثًا أو مراجعةً للكلام بين طرفين ، ويفترقان في أنَّ الجدال فيه لَدَدٌ في الخصومة ، وشدَّةٌ في الكلام مع التَّمسُّك بالرَّأي ، والتَّعصُّب له .

أمَّا الحوار فهو مجَرَّد مراجعة الكلام بين الطَّرفين دون وجود خصومةٍ بالضَّرورة ، بل الغالب عليه الهدوء ، والبُعد عن التَّعصُّب ونحوه [١] .

[٢] المناظرة :

المناظرة لغةً مُشتقَّة من النَّظر ، والنَّظر : تأمُّل الشيء بالعينِ ، وقد نظرت إلى الشَّيء [٢] .

والتناظر : التَّقابل ، يُقال : تناظرتِ الدَّاران : تَقابَلَتا ، ونظر إليك الجبلُ : قابلك .

والنَّظر : الفكر في الشيء تُقدره وتقيسه منك .

فالنَّظر يقع على الأجسام والمعاني : فما كان بالأبصارِ فهو للأجسامِ ، وما كان بالبصائر كان للمعاني [٣] . وفي الحديث : « مَنِ ابْتَاعَ [٤] مُصَرَّاةً [٥] فهو بخير النَّظَرَيْنِ [٦] » [٧] ، أي : خير الأمرين .

---

(١) « الحوار » (ص٢٦) .

(٢) « الصحاح » (٢/ ٨٣٠) .

(٣) « لسان العرب » (٥/ ٢١٧) .

(٤) ابتاع : اشترى .

(٥) مُصرَّاة : التي صُرِّيَ لَبَنُهَا ، وحُقِنَ في ضَرْعها وجُمِعَ ، فلم يُحْلَبْ أيَّامًا ، وأصل التَّصْرِية : حَبْسُ الماء ، يُقال منه : صَرَّيتُ الماءَ : إذا حَبَسْتُهُ .

(٦) أي بعد أن يحتلبها ، فإن رضيها أمسكها ، وإن سَخِطها ردَّها وصاعًا من تَمْرٍ - أو غيره من الطَّعام إلاَّ الحنْطة - مقابل حَلْبَتها ، كما جاء في الحديث .

(٧) رواه البخاريُّ في البيُوع (٢١٤٨) ، ومسلم في البيُوع (١٥١٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

والإنظار: التَّأخير والإمهـال ، والمناظرة : أنْ تناظر أخاك في أمرٍ نظرتما فيه معًا كيف تأتيانه [١] .

والنَّظير: المثل، يُقال: ناظرتُ فلانًا: أي صرتُ نظيرًا له في المخاطبة [٢] .

والمعنى الاصطلاحيُّ للمناظرة يرجع إلى النَّظير والمقابل في المخاطبة والكلام أو إلى النَّظر بالبصيرة من الجانبين في النِّسبَة بين الشَّيْئَين إظهارًا للصَّواب [٣] .

وعلى المعنى الثاني فهي ممدوحة ، وقـريبة من معنى الحوار ، إلاَّ أنَّ المناظرة أدلُّ في النَّظر والتَّفكُّر ، كما أنَّ الحوار أدلُّ في مراجعة الكلام وتداوله [٤] ، أمَّا على المعنى الأوَّل فـلا تُمدح ولا تُذمُّ لِذاتهـا ، وقد تنقلب المناظـرة جَدَلاً ، إذا كان هَدَفُها التَّغلُّب على الخَصْم من غير نظرٍ إلى الحقِّ .

[٣] المِرَاء :

وردَ المراء في الشَّرع على معنى المراجـعة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ [الكهف : ٢٢] .

كما ورد عَلَى معنى الجدال بالظُّنون الكاذبة، والتَّـخرُّصات الباطلة ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) ﴾ .

[مريم : ٣٤] [٥] .

والمراء يُطلق ويُراد به الجدال [٦] إلاَّ أنَّه غلب استعـماله في اصطلاح الأئمَّة على الجدال المذمـوم ، فاستـعمله بعض أهل العلم على الجـدال بالباطل ،وعن الباطل [٧] .

---

(١) « لسان العرب » (٥/ ٢١٧) .
(٢) المرجع السَّابق (٥/ ٢١٩) .
(٣) انظر « التَّعريفات » (ص٢٥) ، و« كشف الظُّنون » (١/ ٣٩) .
(٤) انظر « رسالة الحوار مع أهل الكتاب » (ص١١٥) .
(٥) « أصول الجدل والمناظرة » (ص١٨) .
(٦) « أصول الفقه » (٣/ ١٤١٦) .
(٧) « أصول الجدل والمناظرة » (ص١٨) .

قال أبو بكر بن العربيِّ : « أمَّا المِراءُ : فهي المجادلة فيما تعلم أنَّه باطل ، أو على معنى البدعة » (١) .

واستعمله بعض العلماء فيمن فسد قصده وغرضه من الجدال (٢) .

قال ابن مُفلح : « المراءُ : استخراجُ غضبِ المجادلِ » (٣) .

وقال أبو حامد الغزاليُّ : « المِراءُ : طَعْنٌ في كلام الغير بإظهار خَلَلٍ فيه ، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير ، وإظهار ميزة الكياسة » (٤) .

وقال ابن الوزير : « المراءُ : وهو ما يغلب على الظَّنِّ أنَّه يُهيِّج الشَّرَّ ، ولا يقصد به صاحبُهُ إلاَّ حظَّ نفسه في غلبة الخُصومِ » (٥) .

[٤] المحاجَّة :

تُطلق المحاجَّة لغةً وشرعًا على التَّخاصم والجدال ، يُقال : رجل محجاج : أي جدل ، والتَّحاجُّ : التَّخاصم (٦) .

والكثير من المفسِّرين يُفسر المحاجَّة بالجدال والتَّخاصم ، ففي قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] ، قال الطَّبريُّ في معنى حاجُّوك : « أي خاصموك فيه بالباطل » (٧) .

---

(١) « قانون التَّأويل » (ص٦٧٥) .

(٢) « أصول الجدل والمناظرة » (ص١٩) .

(٣) « أصول الفقه » (٣/ ١٤١٦) .

(٤) « إحياء علوم الدين » (٣/ ١١٥) .

تنبيهٌ مهمٌ على الإحياء :

قال شمسُ الدِّين الذَّهبيُّ - يرحمه الله - : « وأمَّا الإحياءُ ففيه من الأحاديث الباطلة جملةٌ ، وفيه خيرٌ كثيرٌ ، لولا ما فيه من آداب ورُسُومٍ ، وزُهدٍ من طرائق الحكماء ، ومُنحرفي الصُّوفيَّة ، نسألُ اللهَ علمًا نافعًا » السِّير (١٩/ ٣٣٩) .

(٥) « العواصم والقواصم » (٣/ ٣٣٨) .

(٦) « لسان العرب » (٢/ ٢٢٦) .

(٧) « الطَّبري » (٣/ ٢١٤) .

وقال ابن كثير في الآية نفسها : « أي جادلوك في التَّوحيد » [١] .

وقال ابن الجوزيِّ - أيضًا - في نفس الآية : « حاجُّوكَ : أي جادلوك وخاصموك » [٢] .

أمَّا الحجَّة فتُطلق على البرهان والدَّليل ، تقول : حاجَّه محجَّةً : أي غلبه بالحجَّة [٣] ، والصَّحيح أنَّ الحجَّة : هي ما دُفِعَ به الخصم ، سواء أكان برهانًا صحيحًا ، أو شبهةً باطلةً ، وفي الحديث : « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى » [٤] ، أي غلبه بالحجَّة [٥] .

والفرق بين الحُجَّة والمحاجَّة : أنَّ الحجَّة قد تُمْدَحُ وقد تُذَمُّ ، وذلك بحسب إطلاقها ؛ لأنَّها تُطلق على البرهان الصحيح ، كما تطلق على الشُّبهة الفاسدة كما سبق بيانه ، وأمَّا المحاجَّة فإنَّها - في الغالب - مذمومة؛ إذ القصد منها دفع الخصم وردّه ، لا لبيان الحقِّ ، وهي قريبة من معنى الجدال والمخاصمة [٦] .

[٥] الخصومة :

وهي لجاج الكلام ؛ ليستوفي به مقصوده من مالٍ أو غيره ، وتارةً تكون ابتداءً ، وتارةً تكون اعتراضًا ، والمِراءُ لا يكون إلاَّ اعتراضًا [٧] .

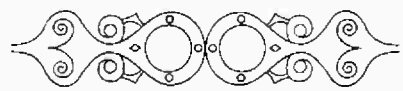

(١) « ابن كثير » (١/ ٣٥٤) .
(٢) « زاد المسير » (١/ ٣٦٣) .
(٣) « الصحاح » (١/ ٣٠٤) .
(٤) رواه البُخاريُّ في أحاديث الأنبياء (٣٤٠٩) ، ومسلم في القدر (٢٦٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) « لسان العرب » (٢/ ٢٢٦) .
(٦) « الحوار » (ص٣١) .
(٧) « الأذكار » (ص٣٢٩) .

عناية القرآن بالحوار

عُنِيَ القرآن الكريم عنايةً بالغةً بالحوار ، وذلك أمرٌ لا غرابة فيه أبدًا ؛ فالحوار هو الطَّريقُ الأمثل للإقناع ، ففي القرآن الكريم نماذج كثيرةٌ من الحوار ، فعلى سبيل المثال لا الحصر :

[١] حوار ربِّ العزَّة والجلال مع الملائكة الأبرار عليهم السلام :

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) ﴾ [البقرة : ٣٠ - ٣٢] .

[٢] حوار ربِّ العزَّة والجلال مع إبراهيم الخليل عليه السلام :

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

[٣] حوار نوح عليه السلام مع قومه :

وهب الله سبحانه وتعالى نوحًا عليه الصَّلاة والسَّلام جَلَدًا وصبرًا في جداله مع الكافرين ؛ لإقناعهم بالحقِّ ، ولَبِثَ فيهم زمنًا طويلاً يُجادلهم بشتَّى الصور والوسائل بهمَّته العالية ، وعزيمته الصَّادقة ، ونَفَسه الطَّويل ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا

فراراً (٦) وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً (٧) ثم إني دعوتهم جهاراً (٨) ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً (٩) فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً (١٠) ﴾ .

{ نوح : ٥ - ١٠ } .

وبسبب هذه الجدِّيَّة الحارَّةُ ، والجَلَد العظيم ، والحرص الكبير على تبليغ أمر الله عزَّ وجلَّ الذي لا يعرف الضعف أو الكَلالَ ، تبرَّم به قومه [١] وملُّوا منه ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قالوا يا نوحُ قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٣٢) ﴾ { هود : ٣٢ } .

[٤] حوار إبراهيم عليه السلام مع الملك الكافر النُمرود بن كَنْعَانَ في إثبات ربوبيَّة الله :

وهبَ الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام قوَّةَ الحجَّةَ ، وظهور البرهان ، والقدرة على الإفحام ، قال الله سبحانه وتعالى مُبيِّنًا نعمته عى عبده وخليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ وتلك حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومه نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ إنَّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ (٨٣) ﴾ { الأنعام : ٨٣ } .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربِّه أن آتاهُ اللَّهُ المُلْكَ إذ قالَ إبراهيمُ ربِّيَ الذي يُحيي ويُميتُ قالَ أنا أُحيي وأُميتُ قالَ إبراهيمُ فإنَّ اللَّهَ يأتي بالشَّمسِ من المشرقِ فأْتِ بها من المغربِ فبُهتَ الذي كفرَ واللَّهُ لا يهدي القومَ الظَّالمينَ (٢٥٨) ﴾ { البقرة : ٢٥٨ } .

لله ما أعظم ذلك الجواب الهادئ المُسْكِت ، وتلك الحُجَّة البيِّنة التي يشهد لها الجميع ، والتي لا يستطيع المحاورُ إنكارها ، أو حتَّى التَّدليس أو التحايل

---

(١) تبرَّمَ : تَضَجَّرَ .

على دلالتها ، الخلق قد شَهد شروق الشَّمس من جهة المشرق قبل أن يكون النّمرودُ ، فإن كان إلهًا قادرًا ، فليُحاول أنْ يأتي بها من المغرب ! .

وهذا - أخي الحبيب - غَيْضٌ من فَيْضٍ ، ونقطةٌ من بحرٍ ، ففي اليسير ما يغني عن الجمِّ الغفير ، ولكنَّها مجرَّد صورٍ ، وإن كان الشَّريط طويلاً في الكتاب العزيز ، والسِّجِلُّ حافلاً ، فقد قيل : « يكفيك من الزَّاد ما يُبلغك المحلَّ » .

ومن خلال الاطِّلاع على هذه النَّماذج وأمثالها يتأكد لنا أنَّ القرآن الكريم يعتمد اعتمادًا كبيرًا على أسلوب الحوار ، مع روعة الفصاحة والبلاغة وجلال البيان ، ولقد أودع الله سبحانه وتعالى معاني كتابه في قوالب لفظيَّة عربيَّة ، وزيَّنه بروعة الفصاحة ، وكساه حُلَّة البلاغة وجلال الإعجاز ، فدُهشَتْ به العرب جميعًا إذ سمعته ، حتَّى قال قائلهم [١] : « إنَّ له لَحَلاوةً وإنَّ عليه لطلاوةَ [٢] وإنَّه لَمُثْمِرٌ أعلاهُ ، مُغْدِقٌ أسْفَلُهُ ، وإنَّه لَيَعْلُو ولا يُعْلَى عليه ، وإنَّه ليحطم ما تحتَهُ » [٣] .

وفي هذا المعنى يقول الأخ أبو عبد الرحمن عبد الرزّاق الغول :

صَاحَ الوَلِيدُ لَقَدْ تَعَالى اللهُ ... وكلامُ ربِّ العَرْشِ ما أَحْلاهُ

مَنْ لي بقُرْآنٍ عَلَيه طلاوةٌ ... غَدَقِ الأَسَافِلِ ، مُثْمِرٍ أَعْلاهُ ؟!

واللهِ ، ما بَشَرٌ يَفُوهُ بِمِثْلِه ... في الكَوْنِ ، بَلْ لمحمَّدٍ أَوْحَاهُ

---

(١) هو الوليد بن المُغيرة المخزوميُّ .

(٢) **طلاوة - بتثليث الطَّاء** - : الحُسْن والبهجة .

(٣) هذه القصَّة أخرَجَها الحاكم في المستدرك من حديث عبد الرزَّاق عن معمر عن أيُّوب السختيانيِّ عن عكْرِمة عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاريِّ ، ولم يُخرِّجاه ، ووافقه الذَّهبيُّ (٢/ ٥٠٧)، وأخرجها البيهقيُّ في دلائل النُّبوَّة عن عبد الرَّزَّاق - أيضًا - كما أخرجها من طريقٍ آخر (٢/ ١٩٨- ٢٠٥) .

وخرَّ بعضُهم سُجَّدًا تعظيمًا عندما سمعه يُتْلَى ، وانجذبتْ إليه صناديد الكفر والعناد ، فكانوا يستمعون إليه تلذُّذًا وإعجابًا ، بل انقادَتْ إليه قلوب العرب والعجم عندما كشف السِّتار عن جماله ، وحاكى العقول ، لذلك خالطتْ محبَّته بشاشة القلوب ، حتَّى إنَّ نَفَرًا من الجنِّ انقادوا إليه عندما سمعوه يُتْلَى، ورأَوا إعجازه ، وأيقنوا بسلطانه .

قال الله سبحانه وتعالى على لسانهم : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) ﴾ [الجن : ١ ، ٢] .

وفي هذا المعنى يقول الإمام محمدُ بن إسماعيل الأمير الصنعانيُّ - رحمه الله - :

أُتْعِرِضُ عَنْهُ عَنْ رياضٍ أريضَةٍ ... ويعتَاضُ - جَهْلاً - بالرِّياضِ هضَابُ
يُريكَ صِراطًا مُسْتقيمًا ، وغَيْرُهُ ... مَفَاوزَ جَهْلٍ كُلُّها وشِعَابُ
يزيدُ عَلَى مَرِّ الجديدَيْنِ[1] مِنْ جدَّةٍ ... فَأَلْفاظُهُ - مَهْما تَلَوْتَ - عذَابُ
وآياتُهُ في كُلِّ حينٍ طَرِيَّةٌ ... وَتَبْلُغُ أَقْصَى العُمرِ وهي كِعَابُ
وفيه هُدَى للعالمينَ ورحمةٌ ... وفيه عُلُومٌ جَمَّةٌ وثوابُ
فَكُلُّ كَلام غَيْره القشرُ لا سوى ... وذا كُلُّهُ عندَ اللَّبيبِ لُبابُ
دَعُوا كُلَّ قَوْلٍ غيره ما سِوَى الَّذي ... أَتَى مِنْ رَسُولِ الله فَهُوَ صَوابُ
وعضُّوا عليه بالنَّواجِذ واصْبِروا ... عَلَيْهِ ولو لَمْ يَبْقَ في الفَمِّ نَابُ
تَرَوا كُلَّ ما تَرْجُونَ مِنْ كُلِّ مَطْلَبٍ ... إِذَا كَانَ فيكم هِمَّةٌ وغلابُ
أَطيلوا علَى السَّبْعِ الطِّوالِ وُقُوفَكُمْ ... تُدِرَّ عليكم بالعلومِ سحابُ
وكَمْ مِنْ أُلوفٍ في المِئَتينِ ، وكَمْ بها ... أُلوفًا تَجِد ما ضاقَ عنها حسابُ

---

(١) الجَديدَيْن : اللَّيل والنَّهار .

وفي طَيِّ أثْناءِ المثاني نفائسٌ ... يطيبُ لها نَشْرٌ ، ويُفْتَحُ بابُ
وكَمْ مِنْ فُصُولٍ في المُفَصَّلِ قَدْ حَوَتْ ... أُصُولاً ، إليها للذَّكيِّ مَآبُ
وما كان في عَصْرِ الرَّسولِ وَصَحْبِه ... سِوَاهُ لهَدْي العالمينَ كتابُ
تَلا « فُصِّلَتْ » لَمَّا أتاهُ مُجَادِلٌ ... فَأُبْلِسَ ، حتَّى لا يكونَ جَوَابُ
أَقَرَّ بأَنَّ القَوْلَ فيه طلاوةٌ ... ويَعْلُوا ، ولا يعْلُو عليه خطَابُ
وأَدْبَرَ عَنْهُ هائِمًا في ضلالِهِ ... يُدَبِّرُ ماذا في الأنامِ يُعَابُ [1]

(١) ديوان ابن الأمير (ص٦٨) .

عناية السُّنَّة بالحوار

إنَّ سيرة الرَّسول ﷺ العطرةَ زاخرةٌ بالمواقف الحكيمة التي حاور فيها الرَّسولُ ﷺ قومه وحاجَّهم ، فعلى جادَّة المثال لا الحصر :

[١] حوار الرَّسولِ ﷺ مع عُتْبَةَ بْنِ رَبيعة :

أرسَلَتْ قريشٌ عتبةَ بْنَ ربيعةَ إلى الرَّسولِ ﷺ يُحادثه ، ويُفاوضه ويُغريه، فجلسَ عتبةُ إلى الرَّسول ﷺ وقال : « يا ابْنَ أخي ، إنَّكَ منَّا حيثُ قد علمتَ من الشطر في العشيرة ، المكان في النَّسب ، وإنَّك قد أتَيت قومَك بأمرٍ عظيم ، فرَّقتَ به جماعتهم ،وسَفَّهْتَ به أحلامَهُم ، وعِبْتَ به مَنْ مَضى من آبائهم ، فاسْمَعْ مِنِّي أعرض عليك أمورًا لعلَّكَ تقبلُ بعضها » .

فقال الرَّسولُ ﷺ : « قُلْ - يا أبا الوليد - أَسْمَع » .

قال : « يا ابْنَ أخي ، إنْ كُنْتَ إنَّما تُريدُ بما جِئْتَ به من هذا الأمر مالاً ، جمعنا لك من أموالنا ، وإنْ كُنْتَ إنَّما تُريدُ به شرفًا ، سَوَّدْنَاكَ علينا حتَّى لا نقطعَ أمرًا دُونَك ، وإنْ كُنتَ تُريدُ به مُلكًا ملَّكناك علينا ، وإنْ كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه ، لا تستطيعُ ردَّهُ عن نفسك ، طلبنا لك الطِّبَّ ، وبذلنا فيه أموالنا حتَّى نُبرِّئَك منه ، فإنَّه ربَّما غلب التَّابع على الرَّجل حتَّى يُداوى منه » .

حتَّى إذا فَرَغَ عُتْبةُ ورسولُ الله ﷺ يستمع إليه ، قال : « **أَوَ قَدْ فَرَغْتَ يا أبا الوليد ؟** » ، قال : « نَعَمْ » ، قال : « **فاسمعْ منِّي** » ، قال : « أفعل » ، فقال رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) ﴾ .

[فُصِّلَتْ : ١ - ٤] .

ثُمَّ مَضَى رسولُ الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلمَّا سمعها أنصت لها ، وألْقَى يَدَهُ خَلْفَ ظهره مُعتمدًا عليها ، يسمع منه ، ثمَّ انتهى رسولُ الله ﷺ إلى السَّجدة فيها فسَجَدَ ، ثمَّ قال : « قد سمعتَ يا أبا الوليد ، فأنتَ وذاك » ، أي : وما تختار ، فقام عتبةُ إلى أصحابه ، فقال بعضهم :

« نحلفُ باللهِ ، لقد جاءكم أبو الوليد بوجْهٍ غير الوَجْه الذي ذهب به » .

وطَلَبَ عتبةُ منهم أنْ يَدَعُوا الرَّسول ﷺ وشأنَهُ ، فَأَبَوْا وقالوا له :

« سَحَرَكَ يا أبا الوليد بلسانه » (١) .

وفي هذا المعنى يقول الإمام محمدُ بن إبراهيم الوزير :

أَلَمْ تَرَ أنَّ المصطفى يومَ جَاءَهُ الـ ... ـوليدُ بِصَوْلِ الأَحوذيِّ المُجادِلِ

تَجَنَّبَ مِنْهَاجَ المِرَا ، وتَلا لَهُ ... مِنَ السَّجْدَةِ الآيات ذاتِ الفَواصِلِ

ولم تَجعلِ القرآنَ غيرَ مصدِّقٍ ... إذا لم تقدِّمْهُ دُروس الأَوائِلِ

كذا فَعَلَ الطَّيَّارُ يَوْمَ خِطَابِهِ ... لأَصْمَحَةَ بَيْنَ الخُصُومِ المقاوِلِ

تَلا عليهم آيَ الكتاب ، وأَيْقَنوا ... بها بشَهَادَاتِ الدُّموعِ الهَوَاطِلِ

إِلَى ذَاكَ صَارَ الأَذْكِيَاءُ مِنَ الوَرَى ... وعادوا إليه بَعْدَ بُعْدِ المراحِلِ (٢)

فانظر - أخي الحبيب - في حوار الرَّسول ﷺ مع عُتْبَةَ ، تجِدْ أكثر من درسٍ ، فعلى جادَّة المثال :

---

(١) « سيرة ابن هشام » (١/ ٣١٣) ، و« البداية والنِّهاية » (٣/ ٦٢) ، وقال الألبانيُّ في « فقه السِّيرة للغزاليِّ » حاشية (ص ١٣) : هذه القصَّة أخرجها ابن إسحاق في « المغازي» (١/ ١٨٥) بسَنَدٍ حَسَنٍ .

(٢) « الرَّوض الباسم » (٢/ ١٤٧) .

أنَّه ﷺ أحسن الاستماع لعُتْبةَ ، وقال له : « قُلْ يا أبا الوليد ، أَسْمَعُ ».

وفي قوله ﷺ : « يا أبا الوليد » أدبٌ جمٌّ ، وخُلُقٌ عظيمٌ ، حيث كنَّاهُ، ولم يَدْعُهُ باسمه ، وكانت العربُ تُحِبُّ المُناداةَ بالكُنْية .

ولَمَّا قال عُتبةُ ما عنده ، أعطاه الرَّسولُ ﷺ الفرصة لإضافة شيءٍ قد يَوَدُّ أنْ يقولَهُ رُبَّما نَسِيَهُ ، أو غفل عنه ، وسأله : « أوَ قَدْ فَرَغْتَ يا أبا الوليد ؟ »

ومعنى ذلك أنَّه أحسن الاستماع تمامًا ، وأعطى مُحدِّثَهُ الفرصة ليقول من جديد دون أن يُعاجلَهُ ، فلمَّا سأله ليتأكَّدَ من فراغه ممَّا لديه بدأ التِّلاوةَ ، وهذا قمَّةُ الأدَب ، وقمَّة الذَّوق ، ممَّا جعل الطَّرف الآخر تتفتَّح نفسه للسَّماع ، فكانت تلك المقدِّمة المحمودة لما جاء بعدها ، وهي تلاوة آيات من الذكر الحكيم، تنتهي بسجدةٍ سجدها عليه الصلاة والسلام ، ثُمَّ قالَ لعُتبةَ : « قَدْ سَمِعْتَ يا أبا الوليد ، فأنت وذاك » .

ففي تصرُّفه عليه الصلاة والسلام أدبٌ عالٍ ، وذَوْقٌ جَمٌّ ، وحُسْنُ استماعٍ منه ، يستدعي حُسْنَ إصغاء من عُتْبَةَ ، وهذا كُلُّهُ جعل عتبةَ مُستعداً للتَّلقِّي ؛ لذلك لا غَرابَةَ إنْ قال له قَومُهُ : « سَحَرَكَ - يا أبا الوليد - بلسانه »[1] .

وفي هذا المعنى يقول الأخ أبو عبد الرّحمن عبد الرّزّاق الغول :

هَلْ رَأَيْتُمْ مِثْلَ عُتْبَهْ ... عاقلاً ضَيَّعَ لُبَّهْ[2]؟!

يَمَّمَ[3] البيتَ بمكَّهْ ... باغيًا ، غَالَبَ ربَّهْ

يا محمَّدُ ، أنْتَ مِنَّا ... لكَ فِينَا خَيْرُ نِسْبَهْ

---

(١) « في أصول الحوار » (ص١٩) .

(٢) اللُّبُّ : العقلُ الخالصُ من الشَّوائبِ ، جمعه ألْبابٌ .

(٣) يَمَّمَ : قَصَدَ .

أنتَ سَبَّيْتَ سُواعًا ... هُبَلاً داوَمْتَ سَبَّهْ
وتَنَقَّصْتَ حَلُومًا ... فيكَ عَنْ قَوْمِكَ رَغْبَهْ
إنْ تَرُمْ (١) مُلْكًا تَجِدْهُ ... فالمعالي بِكَ أشْبَهْ
فاقْبَلِ التَّسْويدَ ، أوْلا ... فالتَمِسْ عِلْمَ الأطِبَّهْ

[٢] حوار النَّبيِّ ﷺ مع الأنصار :

في أعقاب معركة حُنَيْنٍ وزَّعَ النَّبيُّ ﷺ الغنائمَ - وكانت كثيرةً - في قُريشٍ ، وفي قبائل العرب ، ولم يُعْطِ الأنصارَ منها شيئًا ، فغضب بعضُهُم ، حتَّى قال قائلهم : « لَقِيَ - واللهِ - رسولُ اللهِ قومَهُ » .

فَدَخَلَ عليه سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ - وكان زعيمَ قومه الخَزْرَجَ - حَيٌّ من الأنصار - فقال : « يا رسولَ الله ، إنَّ هذا الحيَّ من الأنصار ، قد وَجَدُوا عليك (٢) في أنفسهم ؛ لما صنعْتَ في هذا الفَيْءِ الذي أصبت ، فقسَّمتَ في قومك ، وأعطيتَ عَطَايَا عِظَامًا في قبائل العرَب ، ولم يكُ في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيءٌ ! » .

فقال رسول الله ﷺ : « فأينَ أنتَ منْ قَوْمِكَ يا سَعْدُ ؟ » .

قال : « يا رسولَ الله ، ما أنَا إلاَّ مِنْ قَوْمِي » .

قال : « فاجمَعْ لي قومَكَ في هذه الحظيرة » .

فخرجَ سعدٌ ، فجمع الأنصارَ ، فأتاهُم رسولُ الله ﷺ ، فَحَمِدَ الله ، وأثنى عليه بما هو أَهْلُهُ ، ثُمَّ قال : « يا معشَرَ الأنصار ، مَقَالَةٌ بَلَغَتْني عنكم ، وجدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم ، أَلَمْ آتِكم ضُلاَّلاً فهداكم الله ، وعالةً فأغناكمُ

---

(١) تَرُمْ : تطلبُ ، أصله تروم ، فحذفت الواو تخلُّصًا من التقاء السَّاكنين .
(٢) وجدوا عليكَ : غَضِبوا عليكَ .

اللهُ ، وأعداءً فألَّفَ اللهُ بينَ قلوبكم ؟! » .

قالوا : « بَلَى ، اللهُ ورسولُهُ أَمَنُّ [١] وأفضلُ » .

ثمَّ قال : « ألا تُجيبوني يا معشر الأنصار ؟! » .

قالوا : « بما نُجيبُكَ يا رسول الله ؟ ، لله ولرسوله المَنُّ والفَضْلُ » .

قال : « أَمَا والله ، لو شِئْتُم لَقُلْتُمْ - ولَصَدَقْتُمْ ولصُدِّقْتُمْ - : أتيتنا مُكذَّبًا فصدَّقناك ، ومخذولاً فنصرناكَ ، وطريدًا فآويناك ، وعائلاً فواسيناك . أَوَجدتم - يا معشرَ الأنصار - في لُعَاعة [٢] من الدُّنيا ، تألَّفْتُ بها قُلُوبَ قومٍ ليُسلموا ، ووَكلْتُكم إلى إسلامكم ؟ ألاَ تَرْضَوْنَ - يا معشرَ الأنصار - أنْ يذهبَ النَّاسُ بالشَّاة والبعير ، وتَرْجعوا برسول الله إلَى رحالكم ؟! ، فوالذي نفسُ محمَّد بيده، لولا الهجرةُ لكنتُ امرأً من الأنصار ، ولو سلك النَّاسُ شعْبًا وسلكت الأنصارُ شعْبًا ، لسلكتُ شِعْبَ الأنصار ، اللهُمَّ ارحم الأنصارَ ، وأبناءَ الأنصارِ ، وأبناءَ أبناء الأنصار » .

فبكَى القومُ حتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ [٣]، وقالوا : «رَضِينا برسولِ اللهِ قسمًا وحظًّا » [٤] .

فتأمَّلْ تَرَ ، وانظرْ تجدْ في هذه الواقعة دروسًا عظيمةَ بليغةَ ومُفيدةَ ، فالرَّسول ﷺ لم يَلُمْ سَعْدًا ؛ لأنه لم يَرُدَّ على الأنصار الذين غضبوا ، ولم يُناقشْهُ في حُجَّته التي فيها ما فيها ، بل إنَّه لم يسألْ عن الشخص الذي قال : «لَقِيَ والله رسولُ الله قَوْمَهُ » .

---

(١) **أَمَنُّ** : افْعَل تَفضيل ، معناه أكثرُ مِنَّةً علينا وأعظَم .

(٢) **اللُّعاعة** : بقلة خضراء تستهوي العَين ، شبَّهَ بها الدُّنيا .

(٣) **أخضَلوا لحاهم** : أبلُّوها بدموعهم .

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٣٠) و (٧٢٤٥) ، ومسلمٌ (١٠٦١) عن عبد الله بن زيد .

وفيها أنَّه حاباهم فوق حقِّهم بدافع العصبيَّة ، بل إنَّه سأل سؤالاً عامّاً ؛ ليجعل الحديث للجميع ، وليُواجِهَ المشكلة من أساسها ، وبدأ بسؤاله العاتب عليهم ، وثنَّى على ذلك بذكر الفَضْل الكبير الذي فاز به الأنصارُ إذ أسلموا ، فانتقلوا من الضَّلال إلى الهُدَى ، ومنَ الفقر إلى الغنى ، ومن العداوة إلى التآلف ، ولمَّا كان من البديهيِّ [١] أن يَجُولَ في قلوب الأنصار أنَّهم - أيضًا - أعطوا الرَّسولَ ﷺ ، ونصروه وصدَّقوه - وهذه كُلُّها مزايا حقٌّ - قالها الرَّسولُ ﷺ ؛ ليُقرَّ لهم بالجميل ، فذكر أنَّهم صدَّقوه ، وقد جاءهم مُكذِّبًا ، ونصروه وقد جاءهم مخذولاً ، وآوَوْهُ وقد جاءهم طريدًا ، وواسَوْهُ وقد جاءهم عائلاً ، وبعد أنْ عاتبهم من ناحيةٍ وأرضى قلوبهم من ناحيةٍ ، ختم كلامه معهم بأنْ أقرَّ لهم أنَّهم أعلى كَعْبًا في الإسلام ؛ لذلك وَكَلَهم إلى إسلامهم ، ثمَّ بيَّن لهم المِنَّة الكُبْرَى التى فازوا بها ، إذ يذهب النَّاسُ بالشَّاة والبعير ، أمَّا الأنصارُ فإنَّهم يعودون بخاتمِ الأنبياء إلى رِحالهم ، ثمَّ دعا بالرَّحمَةِ لهم ، ولأبنائهم ، ولأحفادهم ؛ لذلك لا غرابة أن وجدنا الأنصار يبكون ويفرحون ، ويقولون في سعادة :

« رَضِينَا برسول الله قسمًا وحظاً » [٢] .

لَبَّيْكَ رَسولَ الله مَنْ كانَ باكيًا ... فلا تَنْسَ قَبْرًا بالمدينَةِ ثاويا [٣]

جَزَى اللهُ عنَّا كُلَّ خيرٍ مُحمَّدًا ... فَقَدْ كانَ مَهْدِيّاً ، وقَدْ كانَ هاديا

وقَد كان رسولُ الله رَوْحًا ورحْمةً ... ونُورًا وبُرْهانًا مِنَ الله باديا

وكَان رسولُ اللهِ بالخَيْرِ آمِرًا ... وكانَ عَنِ الفَحْشاءِ والسُّوءِ ناهيا

---

(١) البديهيّ : الطَّبيعيّ .

(٢) « في أصول الحوار » (ص٢٢) بتصرُّف .

(٣) ثاويًا : مُقيمًا .

وكانَ رسولُ اللهِ بالقسْطِ قائمًا ... وكانَ لِمَا استرْعاهُ مَوْلاهُ راعيا
وكانَ رسولُ اللهِ يَدْعُو إلى الهُدَى ... فَلَبَّ رسولَ اللهِ لَبَّيْهِ دَاعيا
أَيُنْسَى أَبَرُّ النَّاسِ بالنَّاسِ كُلِّهم ... وأَكْرَمُهُمْ بَيْتًا وشِعْبًا ووادِيا؟!
أَيَنْسَى رسولُ اللهِ أَكْرَمُ مَنْ مَشَى ... وآثارُهُ بالمَسْجِدَيْنِ كَمَا هيَا ؟!
تكَدَّرَ مَنْ بَعْدَ النَّبيِّ مُحَمَّد ... عليه سلامُ كُلِّ مَنْ كان صافيا
رَكَنًا [1] إلى الدُّنيا الدَّنِيئَةِ بَعْدَهُ ... وكَشَفَتِ الأَطْماعُ مِنَّا مَسَاوِيا
وكَمْ مِنْ منارٍ كان أَوْضَحَهُ لنا ... ومنْ عَلَمَ أَمْسَى وأَصْبَحَ عافيا
إذَا المَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى ... تَقَلَّبَ [2] عُرْيَانًا ، وإنْ كان كاسيا
وخَيْرُ خِصَالِ المَرْءِ طاعَةُ ربِّهِ ... ولا خَيْرَ فيمَنْ كان للهِ عاصيا [3]

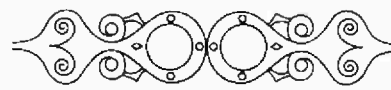

(١) الرُّكونُ إلى الشَّيءِ : الميلُ إليه ، والاعتمادُ عليه .
(٢) تقلَّب : تجرَّد .
(٣) « لطائف المعارف » (ص٢١٦) .

عناية السلف بالحوار

فعلى هذا المنهاج العظيم في الحوار والمناظرة سارَ سَلَفُنا الصَّالحُ رضوان الله عليهم ، فعلى جادَّة المثال :

[١] حوارُ جعْفَر بْنِ أبي طالبٍ (١) رضي الله عنه مع أصْحَمَةَ النَّجَاشيِّ : (٢)

أرسل النَّجاشيُّ إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فلمَّا جاءوا - وقد دعا النَّجاشيُّ أساقفته، فنشروا مصاحفهم حولَهُ - سألهم قائلاً : «ما هذا الدِّينُ الذي فارقْتُم فيه قومكُم ، ولم تدْخُلوا ديني ، ولا دينَ أحَدٍ من هَذه المِلَل ؟! ».

فأجابَه جَعْفرٌ قائلاً : « أيُّها المَلِكُ ، كُنَّا أهْلَ جاهليّةٍ ، نَعْبُدُ الأصْنامَ ،

---

(١) هو ابن عمِّ الرَّسول ﷺ ، وأخُو عليٍّ بن أبي طالب لأبويه ، أسلَمَ قَبْلَ أنْ يدخُلَ رسولُ الله ﷺ دارَ الأرْقَم بن أبي الأرْقَم داعيًا إلى الإسلام فيها ، فهو من السَّابقين الأوَّلينَ للإسلام ، وكانَ أميرَ المؤمنين المهاجرينَ إلى الحَبَشَة ، قَدِمَ منَ الحَبَشَة إثْرَ فَتْح خَيْبَرَ، فالتزَمَهُ الرَّسولُ ﷺ ، وقَبَّلَ ما بينَ عَيْنَيْه واعتنَقَهُ ، وقال : « واللهِ ، ما أدْري بأيِّهما أُسَرُّ : بقدُوم جَعْفَر ، أمْ بفَتْح خَيْبَرَ ؟!» استُشْهِدَ رضي الله عنه في غَزْوَة مُؤْتَةَ ، فبَكَى عليه المسلمون ، ورثاهُ الصَّحابةُ رضي الله عنهم ، فمنْ ذلك قَوْلُ حسَّان بن ثابت الأنصاريِّ رضي الله عنه :

ولَقَدْ بَكَيْتُ ، وعَزَّ مهلكُ جَعْفَرٍ ... حبّ النَّبيِّ على البَرِيَّة كُلِّها
ولَقَدْ جَزِعْتُ ، وقُلْتُ حينَ نُعيتَ لي: ... مَنْ للجلادِ لدى العِقابِ وظلِّها ؟!

ومناقبه مشهورةٌ ، وما أصْدَقَ وَصْفَ زَوْجه أسماءَ بنت عُميس له حين قالت : « ما رأيْتُ شابّاً من العَرَبِ كانَ خيرًا من جَعْفَرٍ » ، وصَدَقَتْ في رِثائه حين قالت :

فآليْتُ لا تَنْفَكُّ نَفْسي حَزِينَةً ... عَلَيْكَ ، ولا يَنْفَكُّ جلدي أغْبَرَا
فلله عَيْنًا مَنْ رأى مِثْلَهُ فَتًى ... أكَرَّ وأحْمَى في الهياجِ وأصبرا !

(٢) هو النَّجاشيُّ أصْحَمَةُ بْنُ الأبجَر مَلِكُ الحَبَشَة ، كانَ مَلِكًا صالحًا ، لا يُظْلَمُ أحدٌ بأرضه وفيه صلاحٌ، كتب إليه الرَّسولُ ﷺ كتابًا مع جَعْفَرٍ رضي الله عنه ، أرْسَلَهُ إليه عَمْرُو بنُ أُمَيَّةَ الضَّمْريُّ ، يدعوه إلى الإسلام ، وكَتَبَ إليه كتابًا ، فأسْلَمَ النَّجاشيُّ على يدِ جَعْفَرٍ ، وصلَّى عليه الرَّسولُ ﷺ صلاةَ الغائبِ حينَ بَلَغَهُ موتُهُ .

ونَأْكُلُ الميتَةَ ، ونَأتي الفواحشَ ، ونقْطعُ الأرحامَ ، ونُسيءُ الجوارَ ، ويأكُلُ القَويُّ منَّا الضَّعيفَ ، فكُنَّا على ذلك حتَّى بَعَثَ اللهُ رسولاً منَّا ، نعرفُ نسَبَهُ وصِدْقَهُ ، وأمَانَتَهُ ، وعَفَافَهُ ، فدَعَانَا إلى الله لنُوحِّدَهُ ونَعْبدَهُ ، ونخلع ما كُنَّا نعبُدُ نحن وآباؤنا من دُونه من الحِجَارة والأوثان ، وأَمَرَنا بِصدْقِ الحديث ، وأداء الأمانة ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وحُسْنِ الجِوَارِ ، والكَفِّ عن المحارمِ والدِّماء ، ونَهَانا عن الفواحش ، وقولِ الزُّورِ وأكلِ مالِ اليَتيم ، وقذفِ المُحْصَنَة ، وَأَمَرَنَا أنْ نعبُدَ اللهَ وَحْدَهُ ، ولا نُشْرِكَ به شيئًا ، فَأَمَرنا بالصَّلاة والزَّكاة ، والصِّيامِ - وعدَّدَ علينا أمور الإسلام - فصدَّقناه وآمنَّا به ، واتَّبعناه على ما جاء به من عند الله ، فعبدنا الله ، فعَدَا علينا قَومُنا ، فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ؛ ليردُّونا إلى عبادة الأوثانِ من عبادة الله ، وأنْ نستحلَّ ما كُنَّا نستحلُّ من الخبائثَ ، فلمَّا قهرونا وظلمونا ، وضيَّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك عَلَى مَنْ سِوَاكَ ، ورغبنا في جوارك ، ورَجَوْنَا ألاَّ نُظْلَمَ عندك أيُّها المَلِكُ » .

فقال له النَّجاشيُّ : « هَلْ مَعَكَ مِمَّا جاء به عَنِ الله مِنْ شيءٍ ؟ » .

فقرأ عليه صَدْرًا من ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ فبكَى النَّجاشيُّ حتَّى اخْضَلَّتْ لحْيَتُهُ [(١)] وبكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حتَّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم [(٢)] ، ثمَّ قال: « إنَّ هذا والذي جاء به عيسى لَيَخْرُجُ من مِشْكَاةٍ [(٣)] واحدَةٍ » [(٤)] .

---

(١) اخضلَّتْ لحْيَتُهُ : ابتلَّتْ بدُموعه .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٣٥٨ - ٣٥٩) .

المشكاة : الثُّقْبُ .

(٤) « سيرة ابن هشام » (٣/ ٣٦٠) ، و« حلية الأولياء » (١/ ١١٤) ، و« عيون الأثر » (١/ ١١٨-١١٩) ، وحَسَّنَ إسنادَهُ فضيلةُ شيخنا العلاَّمة مُقْبِلٍ الوادعيُّ في كتابه « الجامع الصَّحيح » (٣/ ٣٩٠)

فانظر أخي - رعاكَ اللهُ - كيف نَجَحَ الحوارُ في عرض قضيَّة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة ، وشَرْح تعاليم الإسلام للنَّجاشيِّ أَصْحَمَةَ ورجاله ، حتَّى كان ذلك الحوار تمهيدًا لإسلام النَّجاشيِّ على يد جَعْفَرٍ رضي الله عنه فيما بَعْدُ ! .

[٢] حوار عَبد الله بْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما مَعَ الخَوارج :

ومن المناظرات الشَّهيرة في التاريخ الإسلاميِّ مناظرةُ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما مع الخوارج ، وقد كان لهذه المناظرةُ تأثيرٌ كبيرٌ في سير الأحداث فيما بَعْدُ ، حيثُ تَجلَّتْ إمامةُ ابن عبَّاسٍ ، وعُمْقُ فِقْهِه ، وقدرتَهُ على المحاورة والمناظرة ، وإليكَ سياقَ هذه المحاورة :

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال : لَمَّا اعتزلت الحَرُورِيَّةَ [١] قلتُ لعليٍّ : يا أمير المؤمنين ، أَبْرِدْ عن الصلاة ؛ فَلَعلِّي آتي هؤلاء القومَ فأُكلِّمهم .

قال : إنِّي أَتَخَوَّفُهم عليك ، قال : كلاَّ إنْ شاء اللهُ ، فلبستُ أَحْسَنَ ما أقدرُ عليه من هذه اليمانيّة ، ثُمَّ دَخَلْتُ ، فقالوا : مَرْحَبًا بك يا ابْنَ عبَّاسٍ ، ما جاءَ بك ؟ .

قال : جئتُ أُحدِّثكم عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نَزَلَ الوَحْيُ وهم أعلمُ بتأويله .

قال بعضهم : لا تُحدِّثوه ، وقال بعضهم : لَنُحَدِّثَنَّه .

قال : قلت : أخبروني ما تَنْقِمونَ [٢] على ابن عَمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وَخَتَنِه وأَوَّل مَنْ آمن به ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ؟! .

قالوا : ثلاثًا . قُلتُ : ما هُنَّ ؟ . قالوا : أَوَّلُهُنَّ أنَّه حكَّم الرِّجالَ في دين الله ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : ٥٧] .

---

(١) الحَرُورِيَّة : نسبة إلى حَرُوراءَ ، وهي قريةٌ بالكُوفة .
(٢) تَنْقِمونَ : تُنكِرونَ .

قال : قلتُ : وماذا ؟ . قالوا : قَاتَلَ ولم يَسْبِ ولم يَغْنَمْ ، لَئِنْ كانوا كفَّارًا لقد حلَّت له أموالهم ، ولَئِنْ كانوا مؤمنين فقد حُرِّمَتْ عليه دِماؤُهُمْ ! .

قال : قُلتُ : وماذا ؟ . قالوا : مَحَا نَفْسَهُ من أمير المؤمنين ، فإنْ لم يكنْ أميرَ المؤمنين فهو أمير الكافرين ! .

قال : قلت : أرَأَيتُم [1] إنْ قرأتُ عليكم كتابَ الله المُحْكَم ، وحدَّثْتُكُم عن سُنَّة نبيِّكم ما لا تُنكرون أترجعون ؟ . قالوا : نعم .

قال : قلتُ : أمَّا قولكم : إنَّه حكَّمَ الرِّجالَ في دين الله ، فإنَّ اللهَ يقولُ :

[illegible] { المائدة : ٩٥ } ، وقال في المرأة وزوجها : [illegible]

{ النساء : ٣٥ } .

أُنشدكم اللهَ ، أفحكمُ الرِّجال في حَقْنِ دمائهم وأنفسهم ، وصلاح ذاتِ بينهم أحقُّ ، أم في أرْنَبٍ ثمنها رُبْعُ درهَمٍ ؟! .

قالوا : في حقنِ دمائِهم ، وصلاح ذات بينهم ، قال : أخرجتُ من هذه ؟ قالوا : اللهمَّ نَعَمْ .

قال : وأمَّا قولكم : قاتلَ ولم يَسْبِ ولم يَغْنَمْ ، أتَسْبونَ أُمَّكم [2]، ثمَّ تستحلُّونَ منها ما تستحلُّونَ من غيرها ؟! ، فقد كفرتم ، وإن زعمتم أنَّها ليستْ أُمَّكم فقد كفرتم ، وخرجْتم من الإسلام ؛ إنَّ اللهَ يقول :

{ الأحزاب : ٦ } .

وأنتم مُترددِّون بين ضلالتين ، فاختاروا أيّهما شِئْتم ، أخرجْتُ من هذه ؟ .

أرَأَيْتم : أي أخبروني .

يقصد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها .

قالوا : اللهمَّ نعم ، ، قال : وأمَّا قولُكم : مَحَا نَفْسَهُ من أمير المؤمنين ، فإنَّ رسولَ الله ﷺ دعا قُريشًا يَومَ الحُدَيبيَّة على أن تكتُبَ بينهم كتابًا، فقال : اكتبْ : هذا ما قَضَى عليه محمَّدٌ رسولُ الله ، فقالوا : والله ، لو نعلمُ أنَّكَ رسولُ الله ما صَدَدْناكَ عن البيت وقاتلناك ، ولكن اكتبْ : مُحمَّدٌ بن عبد الله .

فقال : والله ، إنِّي لرسولُ الله ، وإنْ كذَّبتموني ، واكتبْ يا عليُّ : محمَّدُ بن عبد الله . ورسولُ الله كانَ أَفْضَلَ من عليٍّ ، ، أخرجْتُ من هذه ؟ .

قالوا : اللهمَّ نَعَمْ ، فَرَجَعَ منهم أَلْفانِ ، وخرجَ سائرُهُم ، فقُتِلوا على ضلالتهم ، قَتَلَهُمُ المهاجرون والأنصار (١) .

فانظر - رحمك اللهُ - كيف أثَّرَ الحوارُ الهادفُ العميقُ في مثل هذه الرُّؤوس اليابسة في مجلسٍ واحد استغرق عدَّةَ دقائق فقط ، حتَّى رجع منهم ألفان إلى مذهب السَّلَفِ !! ، وكيفَ أفلَحَ الحوارُ فيما لم تُفلِحْ فيه الحروبُ الطَّاحنة ؟! .

والخوارج - كما هو معروف - من أكثر النَّاس ضَرَاوَةً ، وقوَّةً ، وشَجَاعةً، وبسالةً في الحروب ، حتَّى إنَّ النَّاس كانوا يهربون منهم ، وحتَّى النِّساء اللاتي التحَقْنَ بالخوارج كُنَّ يُبْدِينَ من ضُرُوب البَسَالة والشَّجاعة ما تَنْدهش له العُقُول ، حتَّى إن الحجَّاجَ بْنَ يُوسُفَ هَرَبَ من غَزَالةَ امرأة شبيبِ أمير الخوارج!، فسخر منه السَّاخرون ، وكتَبَ أحدُهُمْ شعرًا وأرسلَهُ إليه ، ومن ذلك قوله :

أَسَدٌ عَلَيَّ ، وفي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ ... فَتْخَاءُ (٢) تَنْفُرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

أخرَجَه عبد الرزَّاق في المصنَّف ، وأحمد مختصرًا ، والبيهقيُّ في السُّنن ، والقصَّةُ - كما قال شيخُ الإسلامِ في « منهاج السُّنَّة » - : ، وحسَّنَ إسنادها شيخنا الوادعيُّ كما في الصحيح المسنَد .

الفَتْخاءُ : العُقابُ اللَّيِّنَةُ الجَناح ، **والعُقابُ** : طائرٌ كاسرٌ منَ الجوارح ، خَفيفُ الجناح ، سريعُ الطَّيَران، قَويُّ المخالب ، أعقَفُ المنقار ، حادُّ البَصَر ، مَعروفٌ بالعزِّ والمَنعة ، ويضربُ به المَثَلُ في ذلك ، فيُقال : « أَمْنَعُ مِنْ عُقابِ البَحْرِ » وجَمْعُ عُقَاب عِقبان ، وأَعْقُب ، وجمع الجمع عقابين .

هَلاَّ بَرَزْتَ إلى غَـزالةَ في الوَغَى[١] بَلْ كـان قَلْبُكَ في جَـناحَي طَائِرِ[٢]

[٣] حوار وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ مع ذي خَوْلان أحد الخَوارج في اليمن :

قال عليٌّ المديني : حدَّثنا هشامُ بن يُوسُفَ الصَّنعانيُّ أبو عبد الرَّحمن قاضي صَنْعـاءَ ، قال : أخـبرني داودُ بن قـيسٍ قـال : كان لي صـديقٌ من أهل بيت خَوْلان من حضور ، يُقال له أبو شمـرٍ ذو خَوْلان ، قال : فخرجْتُ من صنعاءَ أُريدُ قريته ، فلمَّا دَنَوْتُ منهـا ، وجدْتُ كتابًا مختومًـا في ظهره « إلى أبي شمرٍ ذي خولان » فجئتُهُ ، فوجدتُهُ مهمـومًا حزينًا ، فسألته عن ذلك ، فقالَ : قَدِمَ رسولٌ من صنعاءَ ، فـذكر أنَّ أصدقاء لي كتـبوا إليَّ كتابًا ، فضيَّـعهُ الرَّسولُ ، فبـعثتُ مـعه من رقـيقي [٣] مَنْ يلتـمسهُ من قـريتي وصنعاءَ ، فلـم يجدوه ، وأشفقتُ من ذلك .

قلتُ : فهـذا الكتابُ قَدْ وجدتُهُ ، فـقال : الحمدُ لله الذي أقـدرك عليه ، ففضَّـه فقرأه ، فقلتُ : أقرئنيـه ، فقال : إني لأستحـدثُ سنَّكَ ، قلتُ : فما فيه؟ . قالَ : ضَرْبُ الرِّقابِ ، قُلتُ لعلَّهُ إليكَ ، ناسٌ من أهلِ حَرُورَاءَ في زكاة مالـك ، قال : مِنْ أَيْنَ تعـرفهم ؟ قلتُ : إنِّي وأصـحابًا لي نُجـالسُ وَهْبَ بْنَ مُنَبِّـه، فيـقول لنا : احـذروا ، أيُّها الأحـداثُ الأغمار ، هـؤلاءِ الحروراء ، لا يُدْخلونكم في رأيهمُ المُخالف ؛ فإنَّهم عُرَّةٌ لهذه الأمَّة .

فدَفع إليَّ الكتابَ ، فقرأتُهُ فإذا فيه :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى أبي شمرٍ ذي خولان ، سلامٌ عليك ، فإنَّا نَحْمَدُ إليك اللهَ الذي لا إلهَ

---

(١) الوَغَى : الحرب .

(٢) « البداية والنهاية » (٩/ ٥٣٠) .

(٣) رقيقي : عبيدي .

إلاَّ هُوَ ، ونُوصيكَ بتقوى الله وَحْدَهُ لا شريك له ، فإنَّ دينَ الله رُشْدٌ وهُدىً في الدُّنيا ، ونجاةٌ وفوزٌ في الآخرة ، وإنَّ دينَ الله طاعةٌ ، ومخالفةُ مَنْ خالفَ سُنَّة نبيِّه وشريعته ، فإذا جاءكَ كتابُنا هذا ، فانظر أنْ تُؤدِّي - إنْ شاءَ اللهُ - ما افترض اللهُ عليك من حقِّه ، تستحق بذلك ولايةَ اللهِ ، وولاية أوليائه ، والسَّلامُ عليك ورحمةُ الله .

قُلتُ له : فإنِّي أنهاكَ عنهم . قال : فكيف أتَّبعُ قَولَك ، وأتركُ قولَ مَنْ هو أقْدَمُ منك ؟! .

قال : قُلْتُ : أفتُحبُّ أنْ أُدْخِلَك على وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ ؛ حتَّى تَسْمَعَ قَوْلَهُ ، ويُخبرَكَ خبرهم ؟ .

قال : نعم ، فنزلتُ ونزل معي إلى صنعاءَ ، ثُمَّ غَدَوْنَا حتَّى أدخلتُهُ على وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ ، ومسعود بن عَوْفٍ والٍ على اليمن من قِبَل عُرْوَة بن محمدٍ ، - قال عليٌّ بن المديني : هو عُروة بن محمدِ بن عطيَّة السَّعْديُّ ، ولاؤنا لهم من سعد بن بكر بن هوازن - قال : فوجدنا عند وَهْبٍ نَفَرًا من جُلسائه ، فقال لي بعضُهم : مَنْ هَذا الشيخُ ؟ . فقلتُ : هذا أبو شمرٍ ذو خَوْلان من أهل حضور وله حاجةٌ إلى أبي عبد الله .

قالوا : أفَلا يَذكرُها ؟ . قلتُ : إنَّها حاجةٌ يُريدُ أنْ يستشيرَهُ في بعض أمره فقام القومُ ، وقال وَهْبٌ : ما حاجتُكَ يا ذا خَوْلان ؟ ، فهرجَ وجَبُنَ من الكلام، فقال لي وَهْبٌ : عبِّرْ عَنْ شيخك ، فقلتُ ، نَعَمْ ، يا أبا عبد الله ، إنَّ ذا خولان من أهل القرآن ، وأهل الصَّلاح فيما علمنا ، واللهُ أعلمُ بسريرته ، فأخبرني أنَّه عرض له نفرٌ من أهل صنعاء من أهل حروراءَ ، فقالوا له : زكاتُكَ التي تُؤدِّيها إلى الأمراء لا تجزي عنك فيما بينك وبين الله ؛ لأنَّهم لا يضعونها في مواضعها ، فأدِّها إلينا ، فإنَّا نضعها في مواضعها ، نُقسِّمها في فقراء

المسلمين ، ونُقيم الحدود .

ورأيتُ أنَّ كلامك يا أبا عبد الله ، أشفى له من كلامي ، وقد ذكر لي أنَّه يُؤدِّي إليهم الثَّمرة للواحد مئةُ فَرَقٍ (١) على دوابِّه ، ويبعثُ بها مع رقيقه .

فقال له وَهْبٌ : يا ذا خولان ، أتُريدُ أنْ تكونَ بَعْدَ الكِبَرِ حَرُورِيّاً (يعني خارجيّاً من الخوارج) تشهدُ على مَنْ هو خيرٌ منك بالضَّلالة ؟! ، فماذا أنت قائلٌ لله غدًا حين يُوقفك اللهُ ومَنْ شهدْتَ عليه ؟! ، اللهُ يشهدُ له بالإيمان ، وأنت تشهدُ عليه بالكفر ! ، واللهُ يشهدُ له بالهُدَى ، وأنت تشهدُ عليه بالضَّلالة ! ، فأين تقع إذا خالفَ رأيُكَ أمْرَ الله ، وشهَادتُكَ شَهَادَةَ اللهِ ؟! . أخبرني يا ذا خولان ، ماذا يقولون لك ؟ .

فتكلَّم عند ذلك ذو خولان ، وقال لوَهْبٍ : إنَّهم يأمرونني ألاَّ أتصدَّق إلاَّ على مَنْ يرى رأيُهم ، ولا أستغفرُ إلاَّ له .

فقال وَهْبٌ : صدقتَ هذه محنتهم الكاذبة ، فأمَّا قولهم في الصَّدقة ، فإنَّه قدْ بلغني أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ذكر أنَّ امرأة من أهلِ اليمن دَخَلَت النَّارَ في هرَّة ربطتها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكلُ من خشاشِ الأرضِ (٢) أفإنسانٌ ممن يعبدُ اللهَ وحده ، ولا يُشْرك به شيئًا ، أحبُّ إلى الله من أن يُطعمه من جُوعٍ أو هرَّةٌ ؟ .

واللهُ يقولُ في كتابه : ﴿ ويُطْعِمُونَ الطَّعامَ على حُبِّهِ مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا (٨) إنَّما نُطْعِمُكُمْ لوَجْهِ اللهِ لا نُريدُ منكُمْ جزاءً ولا شُكُورًا (٩) إنَّا نَخافُ من ربِّنا يومًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) ﴾ ، يقول يومًا عسيرًا غضوبًا على أهل معصيته ؛ لغضب الله عليهم ﴿ فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ ، حتَّى بَلَغَ : ﴿ وكانَ

---

(١) الفَرَق - بفتح الفاء والرَّاء - : مكيال يسَعُ ثلاثة آصُع ، أو ستَّةَ عَشَرَ رِطْلاً عراقيّاً .

(٢) خَشَاش الأرض : هوامُّها وحشراتها ، وواحدها خشاشةٌ .

سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإنسان : ٨ - ٢٢] .

ثُمَّ قال وَهْبٌ : ما كاد تبارك وتعالى أن يفرغَ من نَعْتِ ما أعدَّ لهم من النعيم في الجنَّة .

وأمَّا قولهم : لا يستغفر إلاَّ لمن يَرَى رأيهم ، أهُمْ خيرٌ من الملائكة ؟! ، والله تعالى يقول في سورة ﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ ﴾ : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشُّورى : ٥] .

وأنا أُقسم بالله ما كانت الملائكة ليقدروا على ذلك ، ولا ليفعلوا حتَّى أُمروا به ؛ لأنَّ الله تعالى ، قال : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

[الأنبياء : ٢٧] .

وإنَّه أثبت هذه الآية في سورة ﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ ﴾ [الشورى] ، وفُسِّرَتْ في ﴿ حمٓ ﴾ الكبرى ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

[غافر : ٧] .

ألا ترى يا ذا خولان ، إنِّي قدْ أدركتُ صَدْرَ الإسلامَ ، فوالله ما كانت للخوارج جماعةٌ قطُّ إلاَّ فرَّقها الله على شرِّ حالاتهم ، وما أظهرَ أحدٌ منهم قولَهُ إلاَّ ضربَ اللهُ عُنُقَهُ ، وما اجتمعت الأمَّةُ علَى رجلٍ قَطُّ من الخوارج ، ولو أمكن الخوارج من رأيهم لفسدت الأرضُ ، وقُطِعَت السُّبُلُ ، وقطع الحجُّ عن بيت الله الحرام ، وإذًا لعاد أمر الإسلام جاهليّةً ، حتَّى يعود النَّاسُ يستعينون برؤوس الجبال كما كانوا في الجاهليّة ، وإذًا لقام أكثر من عشرة - أو عشرين رجلاً - ليس منهم رجلٌ إلاَّ وهو يدعو لنفسه بالخلافة ، ومع كُلِّ رجلٍ منهم أكثر من عشرة آلاف يُقاتلُ بعضهم بعضًا ، ويشهدُ بعضُهم على بعضٍ بالكُفْرِ ، حتَّى يُصبح الرَّجلُ المؤمن خائفًا على نفسه ودينه ، وأهله وماله ، لا يدري أين

يسلُك ، أو مع مَنْ يكون ، غير أنَّ الله بحكمه وعلمه ورحمته نظر لهذه الأمَّة، فأحسنَ النَّظر لهم ، فجمعهم وألَّف بين قلوبهم على رجلٍ واحدٍ ليس من الخوارج ، فحقن اللهُ به دماءهم ، وستر به عوراتهم ، وعورات ذراريهم ، وجمع به فُرقتهم ، وأمَّن به سُبُلَهم ، وقاتل به عن بَيْضَة المسلمين عَدُوَّهم ، وأقام به حدودهم ، وأنصف به مظلومهم ، وجاهد به ظالمهم رحمةً من الله رحمهم بها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ إلى ﴿ الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة : ٢٥١] ، ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ حتَّى بلغ ﴿ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر : ٥١] ، فأين هم من هذه الآية ؟! ، فلو كانوا مؤمنين لَنُصِروا .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] ، فلو كانوا جُنْدَ الله غَلَبُوا ولو مَرَّة واحدةً في الإسلام .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ حتَّى بلغ ﴿ نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [الرُّوم : ٤٧] ، فلو كانوا مؤمنين نُصروا ، وقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ حتَّى بلغ ﴿ لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥] .

فأين هم من هذا ؟! ، هل كان لأحدٍ منهم قَطُّ أخبر إلى الإسلام من يوم عمر بن الخطَّاب بغير خليفة ، ولا جماعة ، ولا نظرٍ ، وقد قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [التَّوبة : ٣٣] ، وأنا أشْهدُ أنَّ اللهَ قد أنفذ للإسلام ما وعدهم من الظُّهور والتَّمكُّنِ

والنَّصر على عدوِّهم ، ومَنْ خالفَ رأْيَ جماعتهم .

وقال وهْبٌ : ألا يسعك يا ذا خولان ، من أهل التَّوحيد ، وأهل القبلة ، وأهل الإقرار لشرائع الإسلام وسُننه وفرائضه ، ما وسع نبيَّ الله نوحًا عليه السلام من عبدة الأصنام والكفار ، إذ قال له قومُهُ : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) ﴾ حتَّى بلغ : ﴿ تَشْعُرُونَ (١١٣) ﴾ .

{ الشعراء : ١١١ - ١١٣ } .

أوَ لا يسعك منهم ما وسع نبيَّ الله وخليله إبراهيم عليه السلام من عبدة الأصنام، إذْ قال : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ حتَّى بلغ ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾ { إبراهيم : ٣٥ ، ٣٦ } .

أوَ لا يسعك يا ذا خولان ، ما وسعَ عيسى عليه السلام من الكُفَّار الذين اتَّخذوه إلهًا من دون الله ؟ .

إنَّ الله قد رضي قول نوحٍ ، وقول إبراهيم ، وقول عيسى عليهم السلام ، إلى يوم القيامة ليقتدي به المؤمنون ومَنْ بعدهم ، يعني : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ { المائدة : ١١٨ } ، ولا يُخالفون قول أنبياء الله ورأيهم فيمن يقتدي إذا لم يقتدِ بكتاب الله وقول أنبيائهم، ورأيهم .

واعلمُ أنَّ دخولك عليَّ رَحْمةٌ لك ، إنْ سمعتَ قولي ، وقَبِلْتَ نصيحتي لك ، وحُجَّةٌ عليك غدًا عند الله ، إنْ تركت كتابَ الله ، وعُدْتَ إلى قول حروراء .

قال ذو خولان : فما تأمرني ؟ .

قال وَهْبٌ : انظرْ زكاتك المفروضة ، فأدِّها إلى مَنْ ولاَّه الله أمرَ هذه الأُمَّة، وجمعهم عليه ، فإنَّ المُلْكَ مِنَ الله وَحْدَهُ وبيده ، يُؤتيه من يشاء ،

وينزعه ممَّن يشاء ، فَمَنْ ملَّكه اللهُ لا يقدر أحدٌ أنْ ينزعه منه ، فإذا أدَّيتَ الزَّكاةَ المفروضةَ إلى والي الأمرَ برئتَ منها ، فإنْ كان فضلٌ فَصِلْ به أرحامك ، ومواليك وجيرانك من أهل الحاجة ، وضيفٌ إن ضافك .

فقام ذو خولان فقال : أَشْهدُ أنِّي نزلتُ عن رأي الحروريَّةِ ، وصدَّقتُ ما قُلْتَ ، فلم يلبثْ ذو خولان إلاَّ يسيرًا حتَّى مات [١] .

[٤] حوار الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت مع الملحدين في دعوتهم إلى الله ، وأنه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكهُ :

اجتمعَ طائفةٌ من الملاحدةِ بأبي حنيفةَ ، فقالوا : ما الدَّليلُ على وجودِ الصَّانع [٢] ؟ .

فقال : دعوني فخاطري مشغولٌ بأمرٍ غريبٍ ! .

قالوا : ما هو ؟ .

قال : بلغني أنَّ في دجْلَةَ سفينةً مملوءَةً من أصناف الأمتعة العجيبة ، وهي ذاهبةٌ وراجعةٌ من غير أحدٍ يُحرِّكها ، ولا يقوم عليها ! .

فقالوا له : أمجنونٌ أنت ؟! .

قال : وما ذاكَ ؟! .

قالوا : إنَّ هذا لا يُصَدِّقُهُ عاقلٌ .

قال لهم : فكيف صدَّقتْ عقولُكم أنَّ هذا العالمَ بما فيه من الأنواع والأصناف والحوادث العجيبة ، وهذا الفَلَك الدَّوَّار السَّيَّار يجري ، وتحدُث هذه

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/ق٤٨٢-٤٨٣)، وأوردها المزيُّ في « تهذيب الكمال » (١١/ ١٥٠ - ١٥٦) ، والذَّهبي في « السِّير » (٤/ ٥٤٣-٥٤٥) .

(٢) صوابه الخالق ؛ فإنَّ الصَّانع ليس من أسماء الله ، إلاَّ إذا أريد به الخبر ؛ فإنَّهم توسَّعوا في الأخبار ما لم يتوسَّعوا في غيرها .

الحوادث من غيرِ مُحْدِثٍ ، وتتحرَّك هذه المتحرِّكات بغير مُتَحرِّكٍ ؟! .

فرجَعوا على أنفسهم بالملام [١] .

إ ه : حوار رجل من أهل الكلام مع الإمام الشافعي :

جاءَ رجلٌ من أهلِ الكلام إلى الإمـام الشَّافعيِّ وهو في مِصْـرَ ، فسأله عن مسألةٍ في الكلام ، فقال له الشَّافعيُّ : أتدري أين أنتَ ؟ .

قال الرجل : نعم .

قال : هذا الموضع الذي أغرقَ اللهُ فيه فرعونَ ، أبلغكَ أنَّ رسولَ الله ﷺ أمَرَ بالسُّؤال عن ذلك ؟! .

قال : لا .

قال : هل تكلَّمَ فيه الصَّحابةُ ؟ .

قال : لا .

قال : هل تدري كم نَجْمًا في السَّماءِ ؟ .

قال : لا .

قال : فكوكب منها تعرف جنسه ، طلوعه ، أُفولَهُ ، مِمَّ خُلِقَ ؟ .

قال : لا .

قال : فشيء تراه بعينيك من الخَلْق لست تعرفه تتكلَّم في عِلْمِ خالِقِهِ ؟! .

ثُمَّ سأله الشافعيُّ عن مسألةٍ من الوضوء ، فأخطأ فـيها ، ففرَّعها إلى أربعة أوجهٍ ، فلم يُصِبْ في شيءٍ من ذلك .

فقال له : شيء تحتاج إليه في اليوم خمسَ مرَّات تدع علمه ، وتتكلَّف عِلْمَ

---

(١) انظر « درء تعارض العقل والنَّقل » (٣/ ١٢٧) ، و« الرِّياض النَّاظرة » (ص ٢٥٨) .

الخالق ؟! ، إذا هجسَ في ضميرك ذلك ، فارجعْ إلى الله ، وإلى قوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ [البقرة : ١٦٣، ١٦٤] .

فاستدلَ بالمخلوق على الخالق ، ولا تتكلَّف علْمَ ما لم يَبْلُغْهُ عقلُكَ .

فتاب الرَّجلُ [١] على يد الشافعيِّ من علم الكلام ، وأقبل على فقه الكتاب والسُّنَّة [٢] ، وكان يقول بعد التَّوبة : « أنا خُلُقٌ من أخلاق الشافعيِّ » [٣] .

فلعلَّكَ - أخي الحبيب - لستَ بحاجة أنْ أُبيِّنَ لك كيف أفلح الحوار الحكيم في الدِّفاع عن الكتاب والسُّنَّة ، فانظرْ تَرَ الأسلوب العظيم الذي امتاز به الإمام الشافعيُّ ، وتأمَّلْ تجدْ أنَّ مُحاوره قد أصبح عَلَمًا من أعلام المسلمين ، أليس ذلك يدلُّ على أهميّة الحوار وخطورته ؟! .

وليسَ يزيدُ الشَّمْسُ نُورًا وبهجةً إطالةُ ذي وَصْفٍ ، ولا مَدْحُ مادحِ

[٦] حوار الإمام أحمدَ بْنِ حَنْبَلٍ مع أمير المؤمنين الواثق في مسألة خَلْق القُرآنِ :

قال الآجري [٤] - رحمه الله - :

بلغني عن المهتدي - رحمه الله - أنَّه قال : ما قطع أبي - يعني الواثق - إلاَّ شيخٌ جيء به من المصيصة ، فمكث في السِّجن مُدَّةً ، ثُمَّ إنَّ أبي ذكره يومًا

---

(١) هذا الرَّجل الذي تاب من علم الكلام هو الإمام العلاَّمة عَلَم الزُّهَّاد أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى ابن مسلمة المُزني المصري تلميذ الشَّافعيِّ ، وُلِدَ سنة (١٧٥هـ) ، وله المختصر في الفقه ، وقد شرحه عدَّةُ علماء ، تُوفِّي - رحمه الله - سنة (٢٦٤هـ) ، انظر « السِّيَر » (١٢/ ٤٩٤) .

(٢) المرجع السَّابق (١٥/ ٢٥-٣٢) .

(٣) المرجع السَّابق (١٢/ ٤٩٢) .

(٤) في الشَّريعة مخطوط تركيًا (ص٢٤) وما بعدها ، وفي المطبوع (ص٦٣-٦٤) ، وفيها تصحيفات ، فليس في المعتمد إلاَّ قليل .

فقال : عليَّ بالشَّيخ ، فأُتيَ به مُـقَيَّدًا ، فلمَّا أُوقف بَيْنَ يديه ، سلَّم عليه ، فلم يَرُدَّ عليه السَّلامَ ، فقال له الشَّيخ : يا أمير المؤمنين ، ما استعملت معي أدبَ الله تعالى ، ولا أدبَ رسول الله ﷺ ، قـال الله تعالى : ﴿ وإذَا حُيِّيتم بتَحيَّةٍ فَحيُّوا بأَحْسَنَ منْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النِّساء : ٨٦] .

وأمرَ النَّبيُّ ﷺ بردِّ السَّلام .

فقال له : وعليك السَّلام ، ثُمَّ قال لابن أبي دؤاد : سَلْهُ .

فقال : يا أمـير المؤمنين ، أنا محبـوسٌ مقيَّدٌ ، أُصَلِّي في الحَـبْسِ بتيمُّمٍ ، مُنِعْتُ الماءَ ، فَمُرْ بقيودي تُحَلَّ ، ومُرْ لي بماءٍ أتطهَّرْ وأُصَلِّ ، ثُمَّ سَلْني .

قال : فأمـرَ فَحُلَّ قيده ، وأمر له بماءٍ ، فتـوضَّأ وصلَّى ، ثُمَّ قال لابن أبي دؤاد : سَلْهُ .

فقال الشيخ : المسألة لي ، تأمره أن يُجيبَني . فقال : سَلْ .

فأقبلَ الشيخ على ابن أبي دؤاد يسألُهُ ، فقال : أخبرني عن هذا الأمر الذي تدعو الناسَ إليه ، أشيءٌ دعا إليه رسولُ الله ﷺ ؟! .

قال : لا .

قال : فشيءٌ دعا إليه أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه بَعْدَهُ ؟! .

قال : لا .

قال : فشيءٌ دعا إليه عُمَرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه بَعْدَهما ؟! .

قال : لا .

قال الشيخ : فشيءٌ دعا إليه عُثمانُ بن عفَّانَ رضي الله عنه بَعْدَهُم ؟! .

قال : لا .

قال : فشيءٌ دعا إليه عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه بَعْدَهُم ؟! .

قال : لا .

قال الشيخ : فشيءٌ لم يَدْعُ إليه رسولُ الله ﷺ ، ولا أبو بكرٍ ، ولا عُمَرُ ، ولا عُثْمانُ ، ولا عليٌّ رضي الله عنهم تدعو أنتَ النَّاسَ إليه ؟! ، ليس يخلو أن تقولَ : علموه أو جهلوه . فإن قُلْتَ جهلوه وعلمتُهُ أنا ، فيا لُكَعُ بْنَ لُكَعَ [١] ، يجهل النبيُّ ﷺ والخُلفاءُ الراشدون رضي الله عنهم شيئًا ، وتعلمه أنتَ وأصحابُكَ ؟! .

قال المهتدي : فرأيتُ أبي وثبَ قائمًا ، ودخل الحيري [٢] ، وجعلَ ثوبه في فِيْهِ يضحك ، ثمَّ جعل يقول : صَدَقَ ، ليس يخلو من أنْ نقولَ : جَهلوه أو علموه ، فإن قلنا : علموه وسكتوا عنه ، وَسِعَنا من السُّكوت ما وَسِعَ القومَ ، وإنْ قُلْنا : جهلوه وعلمته أنتَ وأصحابُكَ ، فيا لُكَعُ بْنَ لُكَعَ ، يجهل النبيُّ ﷺ وأصحابُهُ رضي الله تعالى عنهم ، شيئًا تعلمه أنتَ وأصحابُكَ ؟! .

ثُمَّ قال : يا أحمدُ . قال : لبَّيْكَ . قال : لستُ أَعْنيكَ ، إنَّما أعني ابن أبي داؤد ، فوثب إليه ، فقال : أَعْطِ هذا الشيخ نفقةً ، وأخرجْهُ عن بلدنا .

وفي روايةٍ أوردها الذَّهبيُّ في « السِّيَر » : وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ، ولم يمتحن بعدها أحدًا .

وفي روايةٍ : قال المهتدي : فَرَجَعْتُ عن هذه المقالة ، وأظُنُّ أنَّ أبي رَجَعَ عنها مُنْذُ ذلك الوقت [٣] .

---

(١) اللُّكَعُ : اللَّئيم والأحمق .

(٢) الحيري : من الحير ، والحير - بالفتح - : شبه الحظيرة . انظر « لسان العرب » (٣/ ٤١٧) .

(٣) قال الذهبيُّ : هذه قصةٌ مليحةٌ ، وإنْ كان في طريقها مَنْ يُجْهَلُ ، ولها شاهدٌ في « السِّيَر » (١١/ ٣١٣) .

قلتُ : قد أسندها الآجريُّ في الشريعة (ص ٩١) ، وعنه ابن بطَّة في الإبانة رقم (٤٥٢) ، وأخرجها ابن بطَّة من طرقٍ أخرى في رقم (٤٥٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ١٥١ و ١/ ٧٥) ، وابن الجوزيِّ في « مناقب أحمد » (ص ٤٣١-٤٣٦) ، والمقدسي في المحنة (ص ١٦٩ - ١٧٤) ، وابن قُدامة في « التوابين » (ص ٢١٠ - ٢١٥) .

وقال الأمين الشنقيطي في « أضواء البيان » (٤/ ٤١١) : « فهذه القصَّة لم تزلْ مشهورةً عند العلماء ، صحيحة الاحتجاج ، فيها إلقام الخصم الحجرَ » ا. هـ .

[٧] حوار شيخ الإسلام ابن تيميّة مع بعض الطَّوائف :

لقد كان شيخ الإسلام وعَلَم الأعلام ابن تيميّة - رحمه الله - مُحاوراً حكيمًا ، فكان إذا دخل في مُحاورة معَ أيِّ طائفة من الطَّوائف ، غلب فيها مُحاوريه وأعجزهم ، وانقادوا له طَوْعًا أو كَرْهًا ، وكان على عقيدة السَّلَف الصَّالح ، ويَعَضُّ عليها بالنَّوَاجذ ، ويبذل جهده ووقته وفكره في إرجاع جميع الطَّوائف المنحرفة إلى هذه العقيدة ، ويرى رأي إمام دار الهجرةَ مالك بن أنسٍ «أنَّه لا يُصْلحُ هذه الأُمَّة إلاَّ ما أَصْلَحَ أوَّلَها » ، وهو رأي كُلِّ حكيمٍ عليمٍ بداء الأُمَّة قديمًا وحديثًا ، وكان الشيخ شديدَ الانتصار لمذهبِ السَّلَف ، والدِّفاعِ عنه بالحُجَج العقليَّة والنَّقليَّة ، وقد عُقِدَتْ له مُناظرات في مِصْرَ والشَّام ، كان معظمها يحومُ حولَ هذه القضيَّة [١] .

ومن هذه المناظرات على سبيل المثال لا الحصر :

المُناظرة الأولى :

وكانت في العقيدة الواسطيَّة التي كتبها لرضيِّ الدِّين الواسطيِّ من أصحاب الشَّافعيِّ ، حينما طلب منه بإلحاحٍ أنْ يكتبَ له عقيدةً تكون عُمْدَةً له ، ولأهل بيته في مدينة واسط ، فكتبها الشَّيخ ، وانتشرتْ بينَ النَّاس ؛ مِمَّا أدَّى إلى ثورةٍ كبيرةٍ من علماءِ الجهميَّة والاتِّحاديَّة ، والرَّافضة ، وغيرهم من ذوي الأحقاد ، فسعى هؤلاء إلى السُّلطان في البلاد المصريَّة ، فكتبَ السُّلطان إلى نائبه على بلاد الشَّام يأمره بجمع قُضاة المذاهب الأربعة ، وغيرهم من نُوَّابهم ، والمُفْتينَ ، والمشايخَ ، وعندما وصَلَ الكتابُ إلى أمير الشَّام جمعَ قُضاة المذاهب الأربعة ، والعلماء ، والشيخ ابن تيميَّة في قصر الولاية بدمشق ، وذلك يوم الاثنين الثامن من رجب سنة (٧٠٥هـ) ، ثُمَّ بدأ المجلس وقراءة العقيدة الواسطيَّة من أوَّلها ،

---

(١) انظر « حياة شيخ الإسلام ابن تيميَّة » (ص٢٧) .

وكانت مُناقشة الشيخ ومُناظرته بحضور الأمير ، فناظرهم الشيخ ، وردَّ عليهم ، وبيَّن لهم مذهب السَّلَف الصَّالح ، وأنَّ هذه العقيدة هي عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة ، وهي التي يدلُّ عليها الكتابُ والسُّنَّة ، وإجماعُ السَّلَف ، وصار يُناظر أصحاب المذاهب ، فكان أعلمَ بمذهبهم منهم ، وأعجزهم أمام الأمير .

ثُمَّ انتهى المجلس الأوَّل ، واجْتمعوا للمجلسِ الثَّاني يومَ الجُمْعَة بعد الصَّلاة في الثَّاني عَشَرَ من رجب سنة (٧٠٥هـ) ، وقد أحضرَ قُضَاةُ المذاهب الأربعة معهم صفيَّ الدِّين الهنديَّ ، وتكلَّم مع الشيخ تقيِّ الدِّين كلامًا كثيرًا ، ولكن ساقيته لاطمتْ بحرًا عميقًا ، ثمَّ استلمَ مَنْ ناظرَ عَقِبَهُ ، فكان كالبحر الزَّاخر ، حتَّى إنَّ هَؤلاء القُضاة والعلماء عجزوا عن مُناظرته ؛ لأنَّه كان يردُّ عليهم بالكتاب والسُّنَّة ، ويدعوهم إلى التَّمسُّك بمذهب السَّلَف الصَّالح ، ويُبيِّنُ لهم أنَّه لم يضَعْ هذه العقيدة من ذات نَفْسِه ، وليس لأحد أنْ يُشَرِّعَ للنَّاس ما لم يأذن به الله ، وإنَّما العقيدة تُؤخذ من كتابِ الله وسُنَّةِ رَسول الله ﷺ ، وإجماع سلف هذه الأُمَّة ، فما أثبته اللهُ لنفسه ، أو أثبته رسولُ الله ﷺ وَجَبَ على كُلِّ مسلمٍ أنْ يُثْبتَهُ لله من غيرِ تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ولا تمثيلٍ ، ولا تكييفٍ ، وما نفاهُ عن نفسه ، أو نفاه عنه رسولُهُ ﷺ وَجَبَ نَفْيُهُ عنه ؛ لأنَّه تعالى أعلَمُ بنفسِه .

وانتهى هذا المجلس أمام الأمير ، أمَّا عن ابن تيميَّة فقد خرجَ والنَّاسُ يحملون له الشَّمع إلى منزله على عادتهم في ذلك .

ثُمَّ عُقِدَ المجلسُ الثَّالثُ في اليوم السَّابع من شعبان سنة (٧٠٥هـ) في القصر واجْتَمَعَ الجماعةُ كُلُّهم على الرِّضى بالعقيدة الواسطيَّة ، وأخذ بعضهم يمدح الشيخ ، ويُثني عليه ، وكان هذا كُلُّهُ أمام رئيس المجلس نائب السُّلطان [1] .

---

(١) انظر المناظرة مطوَّلة في « الفتاوى » (٢/ ١٦٠- ٢٠١)، و«حياة ابن تيميَّة» (ص٢٧) و« الحكمة في الدَّعوة إلى الله» (ص٣١٣-٣١٥) ، و« البداية والنِّهاية » بألفاظ مختصرة ومُفيدة (١٤/ ٣٦-٣٧) .

فأظهرَ اللهُ الحقَّ ، وأبطَلَ الباطل ، وظهرتْ مُحاورة ابن تيميَّة الحكيمة أمام الجميع ، فجزاه اللهُ خيرًا .

المناظرة الثانية :

وكانت هذه المناظرة - والَّتي أعزَّ اللهُ بها أهلَ السُّنَّة ، وخذَلَ بها أهلَ البِدَعِ والخُرافات - مع الطَّائفة الأحمديَّة البطائحيَّة [1] الذين كانوا يُخالفون الشَّيخ تقيَّ الدِّين في عقيدة السَّلَف الصَّالح ، وكان يأمرهم باتِّباعِ الكتاب والسُّنَّة ، ويُنكر عليهم فِعْلَهُمْ وأحوالهم الشَّيطانيَّة ، وفي يوم السَّبت تاسع جُمادى الأولى سنة (٧٠٥هـ) حضَرَ هؤلاءِ المبتدعة في جموعٍ هائلة إلى قصرِ نائبِ السُّلطان أن يكفَّ عنهم الشيخَ ابن تيميَّة ومذهبَهُ السَّلفيَّ ، وعندما رآهم النَّاسُ اجتمع عليهم جَمٌّ غفيرٌ ، ولكن الأمير لم يقبلْ منهم إلاَّ بحضورِ الشَّيخ ومُناظرته ، فأرسل إليه ووصلَ ، وسألَهُ الأمير ، فأخبره ابن تيميَّة أنَّ هؤلاءِ من أهل البدع ، وقد أفسدوا من دين المسلمين ما اللهُ به عليمٌ ، وذكرَ له جميع ما يعرف عنهم ، وأنَّه نهاهم عن البدع ، وهم يأتون بأحوالٍ شيطانيَّة ، ومنها دخولهم النَّار ، واستعدَّ الشيخُ أنَّهم إذا دخلوا النَّار في هذا اليوم فسيدخل معهم ، ومَن احترقَ فعليه لعنةُ الله ، ولكن بعد غسل الأجسام بالخلِّ والماء الحارِّ ؛ لأنَّهم يطلون أجسامهم بأدويةٍ من دُهْنِ الضَّفادع ، وباطن قشر النَّارنج ، فإذا غُسِلَت الأجسام بطلت الحيلة .

وحضر شيوخهم الأكابر يطلبون من الأمير الإصلاح ، والعفو عن الماضي والتَّوبة ، واتِّباع الكتاب والسُّنَّة ، فقبل منهم ابنُ تيميَّة ، ولكن عارض شيخٌ

---

(١) هي الطَّائفة المعروفة اليوم بالرفاعيَّة نسبة إلى أحمد الرفاعيِّ المُتوفَّى سنة (٥٨٠هـ) من بني رفاعة قبيلة من العرب ، وجماعته يستخدمون السيوف ، والحراب ، واللَّعب مع الثَّعابين والعقارب في إثبات الكرامات ! .

آخر من الصُّوفيَّة ، فناظره ابن تيميَّة أمام الجموع الغفيرة ، وتحدَّاهم ابن تيمية في مشارق الأرض ومغاربها بأيِّ شيءٍ يصنعونه في النَّار من حيلهم مثلهم بشرط الغسل ، ولحكمة ابن تيميَّة قال : يكفي في ذلك قنديل يُوقد داخل أصبع المُناظر منهم وابن تيميَّة بعد الغسل .

وعندما سمع الصُّوفيَّة ذلك انهزموا أمام الجموع ، وأقرُّوا بالتزام الكتاب والسُّنَّة ، وطلبَ ابن تيميَّة من الأمير أنْ يضربَ عُنُقَ مَنْ خالفَ الكتاب والسُّنَّة ، فأعلنَ الأمير للنّاسِ أنَّ مَنْ خالفَ الكتاب والسُّنَّة ضُرِبَ عُنُقُهُ ، وطلب الصُّوفيَّة من الشيخ الكتب الصَّحيحة ، فَبُذِلَتْ لهم ، وتفرَّقَ النَّاسُ على التَّوبة ، وسمعَ النَّاس يقولون : ﴿ وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون (١١٨) فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين (١١٩) ﴾ [الأعراف : ١١٨ ، ١١٩] (١) .

فانظر - أخي الحبيب - كيف كان الحوار سببًا في توبة هذا الجمِّ الغفير على يد العالم النحرير الإمام المُجدِّد شيخ الإسلام تقيِّ الدِّين بن تيميَّة ! ، نسألُ اللهَ أنْ يجعلَ ذلك في ميزان حسناته ، وهذا ما يطمعُ فيه المحاورُ المُخلصُ .

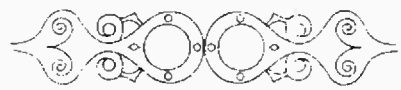

(١) انظر هذه المناظرة مُطوَّلة في « الفتاوى » (١١/ ٤٤٥-٤٧٥) ، وقد سُقْتها بالمعنى ، واستفدتُ ذلك من كتاب « الحكمة في الدعوة إلى الله » ، وانظر مناظراتٍ أخرى مفيدةً في « الفتاوى » (١/ ١٣٥-١٥٦) .

[٨] حوار الإمام محمد بن إبراهيم الوزير [١] مع شيخه جمال الدين :

أي أخي القارئ ، لعلِّي قد أطلتُ عليكَ كثيرًا ، ولعلَّ المَلَلَ والسَّآمة - وربَّما النُّعاس - يطردانك ، فاصبر معي قليلاً ، فلعلَّ هذه الوقفة لم تفتضَّ بكارتُها بَعْدُ .

فَحيَّهَلا إنْ كُنْتَ ذا همَّة ، فَقَدْ ... حَدَا بك حادي الشَّوق فَاطْوِ المراحلا
ولا تَنْتظُرْ بالسَّيرِ رُفقَةَ قاعدٍ ... وَدَعْهُ ، فإنَّ العَزْمَ يكْفيكَ حامِلا

عَوْدٌ على بَدْء :

اعترضَ على ابن الوزير شيخه العلاَّمة جمال الدِّين برسالة وصفها ابن الوزير بقوله : « إلاَّ أنَّه لَمَّا كَثُرَ الكلامُ ، وطال واتَّسع مجال القيل والقال ، جاءتني رسالةٌ مُحبَّرة ، واعتراضاتٌ مُحرَّرَةٌ مُشتَملَةٌ على الزَّواجر والعظات ، والتَّنبيه بالكلم والموقظات ، زعم صاحبُها أنَّه من النَّاصحين المُحبِّينَ ، وأنَّه أدَّى ما عليه من حقِّ الأقربين ، وأهلاً بِمَنْ أبدى النَّصيحة ، فقد جاء التَّرغيب إلى ذلك في الأحاديث الصحيحة ، وليس بضائر إن شاء الله ما يعرض في ذلك من

---

(١) هو الإمام المجتهد المطلق المفسِّر الحافظ المحدِّث المُتقن الأصوليُّ الفقيه المتكلِّم محمَّد بن إبراهيم الوزير ، ينتهي نسبه إلى الحسن السِّبط ابن أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب ، وُلدَ عام (٧٧٥هـ) وتُوفي في عام (٨٤٠هـ) عن ٦٥عامًا ، ترجَمَ له الشوكانيُّ والسَّخاويُّ والحافظُ ابنُ حجر وصاحب مطلع البدور ، والوجيه ، والعطاب ، والشَّريف الفاسي ، وصديق حسن خان . قال عنه ابن حجر في « أبناء الغمر » (١/ ٣٧٢) : « كان مقبلاً على الاشتغال بالحديث ، شديد الميل إلى السُّنَّة » وقال عنه الشَّوكانيُّ : « والَّذي يغلبُ على الظَّنِّ أنَّ شيوخه لو جُمعوا جميعًا في ذات واحدة لم يبلُغ علْمُهُم إلى مقدار علمه ، وناهيك بهذا لو قلتُ : إنَّ اليمنَ لم تُنجب مثْلَهُ ، لَم أبعدْ عن الصواب » ، وقال عنه العلاَّمة صديق حسن خان : « كان فَريد عَصره ، ونادرةَ الدَّهْر ، خاتمة النُّقَّاد ، وحاملَ لواء الإسناد ، وبقيَّة أهل الاجتهاد بلا خلاف وعناد ، رأسًا في المعقول والمنقول ، إمامًا في الفروع والأصول » ، وسُئلَ عنه شيخه ، فقال : « هو أذْكى النَّاسُ قَلْبًا ، وأزكاهم لُبًّا ، كأنَّ قلبه جَذْوَةُ نارٍ تتوقَّدُ ذكاءً » ، ومع هذا الثَّناء والتَّقدير من شيخه لَهُ ، فإنَّه قد تحوَّلَ من مادح إلى قادح ، ومن صديق إلى كاشح ، ومن معجَب به إلى مُسَفِّه لَه ، ومُنفِّر للنَّاس عنه ، مِمَّا آلم الإمام ابن الوزير وأحزنه ، فقال مُعاتبًا شيخَهُ بقصيدته ، والتي مَطْلَعُها :

عَرَفْتَ قَدْرِي ، ثُمَّ أنْكَرتَهُ ... فَمَا عدا بالله مِمَّا بَدَا ؟!

الجدل ، مهما وُزِنَ بميزان الاعتدال ؛ لأنَّه حينئذٍ يدخل في السُّنَّة ، ويتناوله أمر: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وقد أجادَ مَنْ قالَ - وأحسَنَ - :

وجِـدَالُ أهـلِ العلمِ ليسَ بضـائرٍ ... مَـا بينَ غـالبـهم إلـى المَغْلُوبِ

وعقَّبَ الإمام ابن الوزير على ما ورد في هذه الرِّسالةَ بقوله : « بيدَ أنَّها لم تَضَعْ تاجَ المَرَح والاختيال ، وتستعملْ ميزان العدل في الاستدلال ، بل خَلَطتْ من سيمِ المختالين بثَوْبٍ ، ومالتْ من التَّعنُّتِ في الحجاج إلى صَوْبٍ ، فجاءتني تمشي الخُطرا ، وتميس في محافل الخطر ! ، منفوضةً لم تُختمْ ، مشهورةً لم تُكتَمْ ، مُتبرِّجةً قد كشفَتْ حجابها ، وطرحَتْ نقابها ، وطافَتْ على الأكابر وطاشتْ إلى الأصاغر ، حتَّى فضَّت أيدي الابتذال نَضَارتها وافتضَّتْ أفكارُ الرِّجال بكارتَها ، وخير النَّصائح الخفيُّ ، وخيرُ النُّصَّاحِ الخَفِيُّ ، وخير الكتاب المختوم ، وخيرُ العتاب المكتوم ، ثُمَّ إنِّي تأمَّلتُ فصولَها ، وتدبَّرتُ أُصولها ، فوجدتها مُشتملةً على القَدْحِ تارةً فيما نُقِلَ عنِّي من الكلام ، وتارةً في قواعد العلماء الأعلام ، وتارةً في سُنَّة رسول الله ﷺ ، فرأيتُ ما يُخصُّني غيرَ جديرٍ بصرف العناية إليه ، ولا كثيرٍ يستحقُّ الإقبال بالجواب عليه ، وأمَّا ما يختصُّ بالسُّنَنِ النَّبويَّة ، والقواعد الإسلاميَّة - مثل : قَدْحِه في صحَّة الرُّجوع إلى الآية القرآنيَّة والأخبار النَّبويَّة ، والآثار الصَّحابيَّة ، ونحو ذلك من القواعد الأُصوليَّة - فإنِّي رأيتُ القَدْحَ فيها ليس أمرًا هيِّنًا ، والذَّبَّ عنها لازمًا مُتعيِّنًا ، فتعرَّضتُ لجواب ما اشتَمَلَتْ عليه من نقض تلك القواعد الكِبار التي قال بها الجِلَّةُ من العلماء الأخيار [١] ، وقد قصدتُ وجه الله تعالى في الذَّبِّ عن السُّنَن

---

(١) « الرَّوض الباسم » (١/ ٩-١٠)

النَّبويَّة ، والـقواعد الدِّينيَّـة ، وليس يَضُرُّني وقـوفُ أهل المعرفة عـلى مالي من التَّقصير ، ومعرفتهم بأنَّ باعي في هذا الميدان قصيرٌ لاعترافي بأنِّي لستُ من نُقَّاد هذا الشأن ، ولا من فُرسان الميدان ، ولكـنِّي لم أجدْ من الأصحاب مَنْ تَصَدَّى لذلك من غير إحسانٍ ، ولا إعجـابٍ ، ومَنْ عَدِمَ الماءَ تيمَّمَ بالتُّراب ، عالمًا بأنِّي لو كنت باريَ قوسهـا ونبَالها ، وعنترة فوارسهـا ونزالها ، فلن يخلو كلامي من الخطإ عند الانتقاد ، ولا يصفـو جوابي من الكَدَرَ عند النُّقَّاد ، فالكلام الذي لا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا مِنْ خَلْفِه هوكـلام الله الحكيم ، وكلام من شَـهِدَ بعصمَته القرآنُ الكريم ، وكُلُّ كلامٍ بعد ذلك فله خطأٌ وصوابٌ ، وقشرٌ ولُباب ، ولو أنَّ العلمـاء ﷺ تركـوا الذَّبَّ عن الحقِّ خَـوْفًـا من الخَلْقِ [1] ، لكانوا قـد أضاعـوا كثـيرًا ، وخافـوا حقيـرًا ، وأكثـر ما يخاف الخـائف في ذلك أنْ يكلَّ حُسَامُهُ[2] في مُعْتَرَك المُناظرة ، ويَنْبُوَ ويَعْثُرَ جَوَادُهُ في مجال المُحاجَّة ، ويكْبُوَ ، فالأمـر في ذلك قـريبٌ ، إنْ أخطأَ فمن الذي مـا عُصِمَ ؟! ، وإنْ خُطِّئَ فـمن الذي ما وُصِمَ ؟! .

والقاصدُ لوجـه الله لا يخاف أنْ يُنْقَدَ عليه خَلَلٌ في كـلامه ، ولا يُهابُ أنْ يُدَلَّ على بُطْلان قـوله ، بل يُحِبُّ الحقَّ من حيثُ أتاهُ ، ، ويَـقْبَلُ الهُـدَى ممَّنْ أهداهُ ، بل المخـاشنة بالحقِّ أحبُّ إليـه من المُداهـنة على الأقـوال القـبيـحـة ، وصَـديقُك مَنْ صَدَقَكَ ، لا مَنْ صَـدَّقَكَ ، وفي نوابغ الحكمـة : « عليك بِمَنْ يُنْذِرُ الإبسالَ والإبلاسَ ، وإيَّاك ومَنْ يقولُ لك : لا باس ولا تاس » .

ثُمَّ إنَّ الجواب لَمَّا تمَّ بحَـمْد الله تعـالى اشتملَ على عُلُـوم كثيـرة ، وفوائدَ غزيرةٍ أثريَّةٍ ، ونظريَّةٍ ، ودقـيقةٍ ، وجليَّـةٍ ، وجدليَّةٍ ، وأدبيَّـةٍ ، وكُلُّها رياضٌ

---

(١) له كتابٌ في هذا المعنى بعنوان « إيثار الحقِّ على الخَلْقِ » .
(٢) الحُسَام : السَّيف القاطع .

للعارفين نَضرَةٌ ، وفراديسُ عند المُحقِّقين مُزْهِرةٌ ، لكنِّي وضعتُهُ وأنا قويُّ النَّشاط، مُتوفِّرُ الدَّاعية ، ثائر الغَيْرَة ، فاستكثرتُ من الاحتجاج رغبةً في قطع اللَّجاج ، فربَّما كانت المسألةُ في كتب العلماء ﷺ مَذْكورةً غير مُحْتَجٍّ عليها بأكثر من حُجَّة واحدة ، فأحتجُّ عليها بعَشْرِ حُجَج ، وتارةً بعشرين حُجَّةً ، وتارةً بثلاثين حُجَّةً ، وكذلك قد يتعنَّتُ صاحبُ الرِّسالة ، ويُظْهِر العُجْبَ ممَّا قاله ، فأحبُّ أنْ يظهرَ به ضعف اختياره ، وعظيم اغتراره ، فاستكثرتُ من إيراد الإشكالات عليه ؛ حتَّى يتَّضحَ له خروجُ الحقِّ من بينَ يَدَيْه ، فَرُبَّما أوردتُ عليه في بعض المسائل أكثرَ من مائتَي إشكالٍ على مقدارِ نصفِ الورقة »[1] .

فانظر - أخي الحبيب - إلى تلك الرَّوائع الرَّائعات ، فلو تأمَّلتَ فصولها ، وتدبَّرتَ أُصولها ، لعلمتَ أنَّ صاحبها قد برعَ بِفَنِّ الحوار ، فلو ذهبتُ أنقلُ إليك شيئًا من آدابه مع شيخه ، لَبَكَيْتَ على مُحاوري زمانك ، فمن ذلك أنَّه يُوردُ في معرض ردِّه على شيخه العبارة المُشْعِرَة بالثَّناء والتَّقدير ، فيبدأ بذكر قول شيخه بقوله : « وقال - أيَّدَهُ الله - . . . » ، ثُمَّ يُناقش قوله بأدبٍ جمٍّ ، وعلمٍ غزيرٍ ، وإنْصافٍ مُنْقَطِعِ النَّظير ، فقد كان - رحمه الله - مدرسَةً في فنِّ الحوار، وآيةً في هذا المِضمار ، وقلَّ مَنِ ارتدى هذا الثوبَ القَشيبَ في عَصْرِهِ سِوَاهُ .

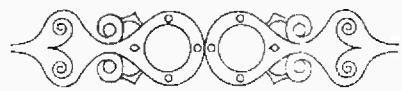

---

(١) « الرَّوض الباسم » (ط/ ١١-١٢) ، وهو مختصر كتاب العواصم والقواصم اختصره مُؤَلِّفُهُ ، والعواصم طبع مؤسَّسَة الرسالة بتحقيق شُعَيب الأرناؤوط في تسعة مُجلَّدات ، وتحقَّقتْ أُمْنيةُ الشَّوكانيِّ القائل عن هذا الكتاب : « لو خرج إلى غير الدِّيار اليمنيَّة ، لكانَ من مفاخر اليمن وأهله» .